اقرأ

خليل شيبوب

عبد الرحمن الجبرتي

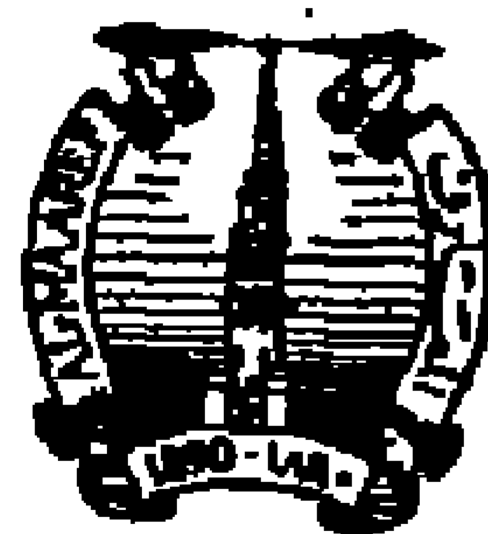
عبدالرحمن الجبرتي

خليل شيبوب

عبد الرحمن الجبرتي

اقرأ ٧٠
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٧٠ — سبتمبر سنة ١٩٤٨



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

١

كان للشيخ نور الدين حسن الجبرتي — والد المترجم له — وكنيته أبو التداني ثلاثة منازل بالقاهرة أحدها بالأبزارية على شاطئ النيل والثاني تجاه جامع مرزه جوربجي ببولاق والثالث في خطة الصنادقية شمال الجامع الأزهر .

وله في كل واحد من هذه المنازل زوج وسراري وخدم ومماليك وعبيد وجوار بيض وسود فهو ينتقل إلى هذا وذاك يحف به أصحابه وتلاميذه ومريدوه فيعقد لهم حلقات التدريس ويملي عليهم ما شاء من العلوم الدينية والوضعية والعقلية والنقلية حتى إذا فرغ من إملائه انفض البعض عنه وانتشر البعض الآخر في الحجرات أو خزانة الكتب . وقد يبقى منهم من يحضر الطعام معه أو يبيت عنده . وكان منزل خطة الصنادقية أحبها إليه لقربه من الأزهر فلا يتكلف المجاورون مؤونة الذهاب إلى بولاق والمسافة ثلاثة أميال أو تزيد وأغلبهم يخاف أن يبرى المشي نعليه ولأن أقرانه من الشيوخ يعوجون عليه في انصرافهم من الجامع وربما تناولوا وجبة العشاء معه وسهروا إلى ساعة متأخرة من الليل .

إلا أن هذا المنزل قد ضاقت أسافله واتسعت أعاليه فتعددت

مدارجه وتشعبت مساربه ، وكلما علت السن بساكنه أعنته الصعود والنزول وكم ساومه فيه الأمير إبراهيم بلك كتخدا ومناه ببناء دار رحبة أو شراء قصر فخم له فأبى أن يستبدل به أى قصر أو أية دار . وكان ابرهيم بلك يقول له : إن خطة الصنادقية قصيرة ضيقة متعرجة وظاهر منزلك لا يدل على داخله وأنت فيه تصعد درجات كثيرة . ثم إن الرحبة المحيطة بالأقبية السفلى ضيقة والليوان فى الصدر عند مدارج الرحبة قائم على بائكة واحدة والحجرات لا تتسع لطلابك وضيوفك مع أن خزانة كتبك مشحونة بالمجلدات النفيسة والآلات الهندسية والاصطرلابات وأدوات الصناعات وهى جميعها مركومة هنا وهناك مبعثرة على الأخونة وفى الزوايا فكيف تستهين بثروتك هذه وما ضرك لو قبلت ما أعرضه عليك . . .

لكن الشيخ كان يعتذر دائماً ولم يجسر الأمير مع جبروته وغطرسته على تهديده أو تعنيفه لحظوته لدى الولاة والأمراء وعزته بين الأشياخ أقرانه .

وفى أصيل يوم من أيام الخريف سنة ١١٦٧ للهجرة (١٧٥٤ ميلادية) كان الشيخ حسن الجبرتى يلقى درسه على الطلبة الملتفين حوله فى منزله بالصنادقية إلا أنه خلافاً لعادته كان يسرع فى الإلقاء ويقتضب المسائل التى يعرضها اقتضاباً

ولا يسهب فى بيان أو تبيين ولما فرغ من درسه انفتل عن الحلقة إلى باب فى جانب البهو صعد منه إلى الطابق العلوى وتسلل الطلبة واحداً واحداً واثنين اثنين وثلاثة ثلاثة ولم يبق منهم إلا من له قضية يحققها فى كتاب من كتب الشيخ المبذولة لهم فى خزانته يتناولون منها ما يشاؤون ودخل البهو بعض الأشياخ من أصدقاء صاحب المنزل كانوا فى الحجرة المجاورة ينتظرون انقضاء الدرس حتى يقابلوه ولما رأوه انصرف جلسوا يتحدثون .

وكان أحدهم الشيخ يوسف عبد الوهاب الدلجى ابن خال الشيخ حسن الجبرتى رجلا وضىء الطلعة باسم الوجه تظهر عليه أمارات الذكاء والفطنة وحب النادرة والملحة وإلى جانبه رجل كهل عصبى المزاج هو الشيخ محمد عبد ربه العزيزى المالكى من خاصة الشيخ حسن ولعل ضيق ذات يده كان يلزمه الاقامة ببيت الشيخ أياماً وثالثهم رجل نحيل الجسم براق العينين ناتىء الجبهة يلبس لباس العامة وعلى رأسه قاووق مطرز بالحرير الأصفر هو الشيخ أحمد الراشدى الشافعى ورابعهم شيخ مهيب حسن الهندام هو الشاعر الطبيب الشريف قاسم التونسى وقد أخذوا جميعاً فى الحديث عن أمراء ذلك العصر الذين يسمونهم المماليك وأظهرهم فى تلك الآونة الأمير إبرهيم كتخدا الذى سبقت الإشارة إليه وقسيمه فى إمارته رضوان

كتخدا الجلفى الذى ترك له آلة الحكم يديرها كيف شاء وانصرف إلى لذاته وخلاعاته .

وإذا كان إبرهيم قد أخفق فى مسعاه لدى الشيخ حسن فى الاستيلاء على منزله بالصنادقية فإن رضوان هذا نجح فى مسعاه لدى آل الشرايبى المشهورين فى الاستيلاء على دارهم المطلة على بركة الأزبكية وهى التى على بابها العمودان الملتفان المعروفة عند أولاد البلد « بثلاثة ولية » فأصلحها حتى كأنه أنشأها إنشاء وعقد على مجالسها العالية قباباً منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون وبنى قصراً مطلا عليها وعلى الخليج الناصرى من الجهة الأخرى وأنشأ فى صدر البركة مجلساً خارجاً بعضه على عدة قناطر وداخلا بعضه الآخر فى غيط المعدية . وبنى كذلك قصراً داخل البستان مطلا على الخليج . وهو اليوم ينتقل فى هذه القصور مع محظيته « سلن » ويجهر بالمعاصى والراح ، ومواصلة الملاح . وقد قصده الشعراء ومدحوه بالقصائد والمقامات فوصلهم وأجزل صلاتهم وكان ممن مدحوه أديب عصره الشيخ عبدالله الإدكاوى فأطنب فى مديحه أيما أطناب ثم جمع ما نظمه هو وغيره من الشعراء فى كتاب سماه « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » وقد حوى هذا الكتاب عدة قصائد من نظم الشريف قاسم التونسى

أهمها قصيدة طويلة مخمسة جاء فيها :

دع علة التعليـــل بالأمانى واقصد حمى الموصوف بالأمان
وانف لباس البؤس والأحزان واسأل عن النعيم من رضوان
قل ما تريد لا تخف من رد

قال الشيخ يوسف الدلجى : يا سيد قاسم ألا ترى أنك وأمثالك من الشـــعراء مسؤولون عن المظالم التى يجترسها الأمير رضوان لأنكم بامتداحكم له تشجعونه على التمادى فى هذا البذخ ، والتغالى فى هذا المجون ؟ وهو إنما يسد نفقاته الباهظة من المظالم والمصادرات ولا بد أن يصيبكم شىء من دعاء الناس عليه لأنكم شركاؤه فى مسلكه وليتكم تأملتم فى أصل الرجل ولم تقصروا نظركم على ماله وجاهه .

فضحك السيد قاسم وقال : والله يا أخى إنك على حق ولو لم أنظم قصيدتى المخمسة فيه لأرسل لى من يبطش بى فى عطفة طريق أو فى عقر دارى وهو يعرف أنى أنظم الشعر فمدحى له دفع السوء عن نفسى لا ابتغاء جاه أو نوال ، ولا بد أنك تنبهت إلى أن عهده هذا خير من عهد أسلافه ، ومنذ سبع سنين قد استتب الأمن بعض الشىء فى البلاد ، ولا أقول هذا تبرئة لنفسى واعتذاراً عنها فى مديحى له ولكنه عندى أفضل من غيره إذا جاز التفاضل بين الظالمين . . أما مقاذعه ومفاحشه

فشر لا أزعم لنفسى أن أنهاه عنه ولست متصدراً للوعظ والإرشاد لأن هذه مهمة سادتنا العلماء أما أنا فمهمتى تدريس الطب فى مدرسة السيوفيين .

قال الشيخ يوسف : إن الأمر على ما ذكرت ولكن هذا البذخ والاستهتار والفسوق والمجون مؤذنة ببوار هذه الدولة .

قال الشيخ العزيزى : وأى دولة هى يا مولانا ؟ أهى القاسمية أم الفقارية أم القازدغلية ؟

قال الشيخ يوسف : إنك خفيف الظل يا شيخ محمد . وإنما أعنى دولة هؤلاء المماليك كيفما سميتهم .

قال العزيزى : إن حكامنا قوم لا أصل ولا فصل ، ألم يبلغك نبأ الحاج صالح الفلاح أستاذ الأمراء المشهورين بجماعة الفلاح ؟ فاستضحك الشيخ يوسف وقال : نعم الحاج الحاج صالح صاحب مصنع المماليك فتعالت الضحكات وطالت فقال العزيزى : هو هو ذلك الفلاح الساذج الذى نزح من قرية الراهب بالمنوفية إلى هذه القاهرة المنكوبة بهم وأعمل ذكاءه وفطن إلى أن ينشىء المماليك إنشاء كما يستفرخ الدجاج والحمام فصار يكد ويجد حتى اقتنى شيئاً من المال لستغله فى شراء المماليك والعبيد والجوارى وراح يزوج هؤلاء وأولئك ولما تناسلوا وكثروا فرش لهم الدور ، وتأنق لهم فى اللباس ليظهرهم بمظهر

الجاه والجمال . ثم تلطف فى إدخالهم فى الوجاقات والبلوكات تارة بالرشى وطوراً بالمصانعات حتى أحرزوا مراتب جليلة وأصبح الكثيرون منهم أمراء وكتخداآت واختيارية وأمراء طبلخانات وجاويشية وأوده باشيه وأربى عددهم على المائة وصارت لهم بيوت وأتباع واشتهروا شهرة واسعة ونسبوا إليه فقيل عنهم جماعة الفلاح . وقد أثرى الحاج صالح من هذه التجارة بل الصناعة ثراء عظيماً وأصبح يقرض الأمراء بالربا وقد شاب وشاخ — وهو اليوم فى السبعين — ومع ذلك فهو هو متواضع مصانع يركب حماراً ويعتم بعمامة صغيرة على طربوشه والخادم وراء الحمار فى عطفات القاهرة . . . هذا هو صاحب مصنع المماليك ، بل مستفرخ المماليك . قال الراشدى : كيف ترجون بقاء الدولة وهؤلاء هم قادتها وذوو الرأى فيها . ولا هم لمثل هؤلاء إلا الإثراء والتنعم باللذات والتفاخر بالقصور يشيدونها ، والنساء والغلمان يحشدونهم فيها . وإذا رضى الله عن أحدهم بعض الرضى ألهمه أن ينشىء سبيلا أو يبنى مسجداً وقد يبنى مدرسة أو كتاباً . والديار المصرية كلها فى نظرهم هى هذه القاهرة التى يعيشون فيها بل يعيثون فيها فساداً أما القرى والحواضر الريفية فلا ولا . . إنها البقرة الحلوب التى يعتصرون درها وخلية النحل التى يشتارون عسلها ولا يؤودهم

أن تموت البقرة جوعاً أو يتطاير النحل عن الخلية لفقد المرعى .

قال الشيخ يوسف الدلجى : هذه المآسى لا دواء لها إلا أن يجرد مولانا السلطان جيوشه ويقضى بها على هؤلاء الطغام الذين يتزايد عددهم كلما تزايدوا فى إفناء بعضهم البعض كأن هناك مصانع خفية تخرجهم كمصنع أخينا الحاج صالح . قال العزيزى : لقد وعيت حروب الأوجاقات(١) وفتنها وقيام البنكجرية على التفكجية والمتفرقة على الجراكسة والجمليان على العزب ، وبطش الفقاربة بالقاسمية ونصف سعد ونصف حرام وقيام الفرقة القازدغلية اليوم وغدر الأمراء ببعضهم البعض وحوادث التقتيل والتشريد وعزل الولاة والسخرية بالمراسيم السلطانية ولكنه لا يزال يحز فى صدرى أن كل فرقة من هؤلاء كانت تأخذ فتوى على جواز قتال الأخرى .

(١) الاوجاقات جمع أوجاق ومعناه موقد النار ويطلق على الفرقة من العسكر . والاوجاقات التركية فى مصر لذلك العهد سبعة هى أوجاق المتفرقة ومعناها أصحاب إقطاعات . وأوجاق الجاويشية ولفظة جاويش تدل على رتبة بين الاونباشى والملازم وأوجاق كولويان أو جمليان أى المقطوعة. وأوجاق تفنكجيان أي حملة البنادق . وأوجاق الجراكسه وهم المماليك وأوجاق الانكشارية ومعناه العسكر الجديد . وأوجاق العزب أى رجال البحرية . ولكل واحدة من هذه الفرق اختصاص يصعب تحديده وليس هنا موضوع الكلام عليها .

فأجاب الشيخ أحمد الراشدى وهو يبتسم : « كلما جاءت أمة لعنت أختها » ثم إن هذه من أبسط الأمور اليوم ولكن . . . هذا أخونا الشيخ حسن الجبرتى قادم .

ودخل شيخ قصير القامة عبل الجسم ينظر عن عينين سوداوين يأتلق بريقهما ويعلوهما حاجبان غليظان وتسترسل على صدره لحية عريضة تمازج فيها البياض بالسواد فنهض الجميع إجلالا ولكنه أقرأهم السلام ولم يصافح أحداً بل سارع إلى أقرب مكان فى جنب الشريف قاسم وقعد وهو يقول :

ـ لا عليكم واصلوا ما كنتم فيه .

وكان الشيخ منفعل النفس تدل أسارير وجهه على انقباض وحصر

فقال الشيخ يوسف : إننا كنا فى حديث معاد نعرض لهذا الكابوس الجاثم على البلاد ولا نرى منه مخلصاً . . . إنها حالة مؤلمة . . . الأمراء قد أفحشوا فى الظلم . . .

فقاطعه الشيخ قائلا : « ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . » فقال الشريف قاسم : أرى سيدى الشيخ مشغول البال أرجو الله أن لا يكون شاكياً ضراً .

فقال الشيخ : بل أحمد الله على نعمه . الحمد لله رب العالمين . لقد منّ الله على بولد سميته باسم جدى الأعلى عبد الرحمن.

فقال الجميع : بارك الله لك فيه . يعيش فى ظلك وعزك يا مولانا وينبته الله نباتاً حسناً .

قال الشيخ : إنه الولد الثانى الذى يمن الله على به فى هذا العام فلقد رزقت علياً منذ شهر ولكن مولود اليوم وضعته إحدى السرارى وعلى كل حال لا أرانى مسروراً . . . ثم وجه حديثه إلى الشريف قائلاً :

لقد رزقنى الله إلى اليوم خمسة وثلاثين مولوداً من الذكور والاناث ماتوا جميعاً وهم دون البلوغ . . . فهل لهذا تعليل طبى يا سيد قاسم .

قال السيد : لما كنت أدرس الطب فى البيمارستان المنصورى عالجت هذه المسألة طويلا ولم أجد لها تعليلا ولعل للوراثة شأناً فى هذا الأمر الغريب .

قال الشيخ حسن : إن أجدادى الأعلين عمروا جميعاً ولم يمت شاباً إلا والدى إبرهيم رحمه الله ولكنه بلغ رشده وتزوج وأعقب أما هؤلاء الصبية الأبرياء فإنهم يتناثرون كحبات العقد . ولقد والله بلغت روحى التراقى مما أدفن بيدى من الأطفال وأقف على هذه القبور الصغيرة أوارى فيها قطع أحشائى . . .

وكادت العبرة تخنقه فبادره الشيخ محمد العزيزى وكان يكنى « بابن الست » لأن أمه كانت سرية وقال : إنى أبشر

مولانا ببشارة أرجو أن يذكرنى بها بالخير فإنى أرى أنه قد ولد لى اليوم ابن خالة . . . فابتسم الشيخ حسن على حرج صدره ولكن العزيزى استطرد قائلا : نعم أبشر نفسى بأنه ولد لى ابن خالة ما دامت أمه سرية مثل أمى . ألم يولد لأبى من حرائر نسائه ثمانون بنتاً . . . والله يا مولانا الشيخ يوسف ثمانون بنتاً ولدن لأبى رحمه الله حتى كربت روحه تزهق من هذه الذرية المؤنثة . . . ثم اشترى سرية رومية ولدتنى له ولم تلد له غيرى لأجل هذا دعيت « ابن الست » .

فأجاب الشيخ يوسف مبتسما : كما يقال للأسود يا أبيض ويدعى اللديغ سليما .

قال العزيزى : كما تريد . . . ولكن اليوم . . . يكون عبد الرحمن الجبرتى ابن ابن خالك . . . ابن خالتى . . .

فضحك الشيخ يوسف والشيخ الراشدى وسأل السيد قاسم : وأين البشارة يا شيخ محمد ؟

قال العزيزى : البشارة أنه سيعيش هذا الطفل السعيد ببركة دعائى له . . . ثم وقف الشيخ محمد العزيزى رافعاً يديه إلى السماء يقول :

اللهم احفظ ابن خالتى عبد الرحمن من كل سوء وأطل

عمره وثبته فى طاعتك واكتب له السعادة فى الدارين يا أرحم الراحمين .

فقال الجميع آمين .

والتفت إليه الراشدى وكان شافعياً وسأله : إن أباك يا شيخ محمد كان شافعياً فما بالك نشأت مالكياً .

أجابه : يا سيدى الشيخ إن والدى أقرأنى القرآن على مولانا الشيخ على العدوى والعدويون مالكيون كما تعلم فهذا سبب التصاقى بالمالكية على أنى أردت الانتقال إلى الشافعية ولكننى رأيت فى المنام الإمام الشافعى رضى الله عنه فنهانى عن ذلك فهل أخالف صاحب المذهب لأرضى أتباعه .

فابتسم الراشدى وقال : كلا . . . ثم قام منصرفاً وقام معه السيد قاسم قائلا : لست منصرفاً بل أود أن أحقق بعض المسائل فى خزانة الكتب . فقال الشيخ حسن : على رسلك حتى يحضر الطعام .

وانصرف الراشدى ودخل السيد قاسم حجرة الكتب وأخذ يتفحص بعض الآلات والأدوات والكرات وتبعه الشيخ العزيزى يسأله عن الكتب التى يريد أن يقدمها له . وكأنما كان حديثه ذاك قد حل عقداً من لسانه فاندفع يقول للسيد قاسم : إن مولانا حسن الجبرتى عالم لا يضاهيه فى علمه أحد .

سلنى عنه فإنى عايشته فى منزله وخبرت إخلاصه لله وللدين وللعلم هذا رجل ينام أول الليل ويقوم آخره يصلى ما تيسر من النوافل والوتر وإذا لم يشتغل بالذكر انصرف إلى مسألة فقهية أو رياضية أو فلكية . لقد طار صيته فى الآفاق وراسله ملوك الدنيا حتى مولانا السلطان أهدى إليه نسخاً من خزائنه : انظر هذه الكتب المذهبة العجيبة : هذا كتاب القهستانى الكبير . وهذا فتاوى الأنقروى . وهذا نور العين فى إصلاح جامع الفصولين . إنها كتب سلطانية بالتركية والشيخ يتقن هذه اللغة وهو يخاطب بها الأمراء حتى كأنه منهم وقد قصده منذ سنوات جماعة من الإفرنج أخذوا عنه علم الهندسة وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم وأخرجوه من القوة إلى الفعل .

وكان السيد قاسم يصغى إلى الشيخ العزيزى مبتسماً وقد تناول كتاباً صغيراً ملوى على الخوان عنوانه « وسيلة الطلاب لاستخراج الأعمال بالحساب » للعلامة الماردينى فنظر العزيزى إلى الكتاب وقال : أرأيت هذا الكتاب ؟ . . . إنه أنقذ سمعة البلاد من الجهل .

فنظر إليه السيد قاسم متعجباً . فقال الشيخ محمد : ألم يحدثك عنه مولانا الشيخ عبدالله الشبراوى وهو عديلك فى نظم الشعر وإن كان شيخ الأزهر .

قال السيد قاسم : وما معنى هذا الكلام .

قال الشيخ محمد : لما حضر الوالى أحمد باشا الملقب كور وزير باحث الشيخ عبدالله فى العلوم الرياضية فأحجم الشيخ فعجب الوالى من جهله وقال له إن المسموع عندنا فى الديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . . . ثم قال له : إن غاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل واضطرحتم المقاصد .

فقال له مولانا الشيخ عبدالله : إن معرفة غير هذه من فروض الكفاية إذا قام بها البعض سقط عن الآخرين . ثم دله على أستاذنا الشيخ حسن الجبرتى فلاقى عنده بغيته ، ونال أمنيته . وأقرأه أستاذنا هذا الكتاب الذى بيدك الآن وحل له أعوص المسائل ، وأعضل المشاكل ، حتى طار به فرحاً وألبسه فروة سمور علامة التفخيم والتعظيم ليظهر له إعجابه به وما زال يكرمه كل الإكرام حتى رحل عن هذه البلاد فراح ينشر فضله فى دار السلطنة . . . وظل مولانا الشيخ عبدالله الشبراوى يقول بعد ذلك لأستاذنا الشيخ حسن : سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً . . .

فضحك السيد قاسم وقال : ألهذا تقول لى أنه عديلى . . .

فوجم الشيخ العزيزى وقال : معاذ الله ! معاذ الله !

٢

كانت الدنيا مقبلة إقبالا عظيماً على الشيخ حسن الجبرتى بما آل إليه من وقف جدة والده زينب الجوينية وبما وقفته عليه جدته لأبيه الحاجة مريم بنت الشيخ محمد المنزلى الأنصارى من عقارات أهمها وكالة الصنادقية والحوانيت المجاورة لها وأملاك أخرى بالغورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الأقبغاوية . وكانت هذه الجدة كفلته صغيراً بعد وفاة أبيه سنة ١١١٠ وعمره شهر واحد وأقيم وصياً عليه الشيخ محمد النشرتى المالكى شيخ الأزهر لذلك العهد . ولا شك فى أن هذه الجدة كانت شابة حينئذ فتزوجها الأمير على أغاباش متفرقة المعروف بالطورى نسبة إلى قلعة الطور التى كان له حكمها مضافاً إليها قلعتا السويس والمويلح وفطن الشيخ حسن بثاقب بصيرته حين بلغ مبلغ الرجال إلى أن فى هذا الزواج تبعيداً بينه وبين جدته الثرية فتزوج بنت هذا الأمير ليزيد علاقته توثيقاً به .

ونرى الشيخ تزوج من جهة أخرى ابنة رمضان جلبى المعروف بالخشاب . وكانت أسرة هذه الزوج تملك عقارات عديدة فى بولاق منها وكالة الكتان وربع وحوانيت تجاه جامع

الزردكاش وبيت كبير بساحل النيل ومنزل تجاه جامع مرزه الشوربجي ولا بد أن حصة زوجه هذه كانت ذات بال حتى شاركها فى قسم كبير من هذه العقارات .

ولم يقتصر الشيخ حسن على استغلال أوقافه وممتلكات زوجته بل تاجر وضارب وشارك وقايض وباع واشترى ومارس أمر الدنيا إلى جانب ممارسته أمور الدين . ولما توفى الأمير على الطورى آل إلى الشيخ حكم القلاع المشار إليها ولا نعرف كيف كان ذلك وهو لم يكن من الأمراء . إلا أنه قتل له هناك خادم يدعى سليمان فاغتم لمقتله وتخلى عنها واقتصر على الاشتغال بما يشتغل به العلماء .

ومن كانت هذه غلاته ومرافقه كانت عيشة البذخ ميسرة له . وبعد فالشيخ لا يعول أزواجه وولده وحاشيته بل يعول كثيراً من الأشياخ الناشئين والمهاجرين فيسرف فى الإنفاق عليهم .إذا جاز أن يدعى الانفاق عليهم إسرافاً .

من ذلك أن الشيخ إسماعيل النفراوى لما اعتبر أن ابنه الشيخ محمد إسماعيل قد بلغ المنتهى من العلوم الفقهية أحضره إلى الشيخ حسن سنة ١١٧١ وسنه إذ ذاك عشرون سنة ورجا منه أن يلقنه العلوم الحكمية والرياضية التى ابتدع الشيخ إلقاءها فى الأزهر وفى منزله فألحقه الشيخ بمنزله وأفرد له خزانة لكتبه

وعروضه واشترى له حماراً ورتب له كسوة ومصروفاً .

وكان الشيخ مرة على بغلته عائداً إلى بيته فاذا الأمير أحمد البارودى ماراً بموكبه فتحاير الشيخ عن الطريق ولكن سرعان ما نزل الأمير عن فرسه وخف إلى الشيخ يقبل يده فاستحيا الشيخ منه وأراد أن يقابل عطفه هذا بمأثرة يقدمها إليه فالتمس منه أن يقيـــد به أحد الطلبة ليقرئه الفقه فقيد به الشيخ عبد الرحمن العريشى شيخ رواق الشوام وشيخ الأزهر فيما بعد .

وهذان المثلان بعض من كل . فهنالك طائفة من الأشياخ لا يكادون يبرحون منزل الشيخ حسن . فمن المشايخ محمود الكردى وعبد الرحمن البشبيشى ومحمد الفرماوى والعزيزى والهلباوى ومن غير المشايخ محمود النيشى والتونسى وغيرهما ومن المهاجرين ابن السويدى البغدادى وإبرهيم الصيحانى وعدد وفير من المريدين بعضهم متقيد بخزانة الكتب وبعضهم بالنسخ وبعضهم بالتجليد وإلى جانب هؤلاء جميعاً يفد لزيارة الشيخ فى كل أسبوع عدد جم من الأمراء والأعيان والتجار إما للتبرك وإما للاستئناس وبيت الشيخ مفتوحة رحابه للجميع مبذول خيره لهم على السواء .

وكان الشيخ حسن إلى جانب الواجب الخاص يقدر الواجب العام فإنه لما اختلت الموازين والقبابين بالقاهرة سنة ١١٧٢ انبرى

لتصحيحها فاستدعى السباكين والحدادين وحرر لهم المثاقيل والصنج وأرشدهم إلى ضبطها ووضع فى ذلك كتاباً سماه « العقد الثمين فيما يتعلق بالموازين » واستحضر على خليل شيخ القبان والشيخ حسن ربيع البولاقى وأملاه عليهما وأنفق على هذا الواجب العام من حر ماله مبالغ طائلة ابتغاء وجه الله وحده .

فلا عجب إذا رأينا الشيخ يبيع فروة السمور التى خلعها عليه الوالى أحمد باشا كور بثمانمائة دينار كان فى حاجة إليها بلا ريب .

* * *

فى مثل هذه البيئة العلمية والثقافية نشأ عبد الرحمن الجبرتى وأى شيخ صادف فى المنزل كان يرى لزاماً عليه مذاكرته فى شىء من المعرفة فهذا البشبيشى يلقنه حروف الهجاء وآيات من القرآن وهذا الشيخ عبد ربه ابن الست يضمه إليه ويقول للبشبيشى : لا ترهق ابن خالتى بالحفظ . أما الشيخ محمد موسى الجناجى فهو أظرف الأشياخ فى نظر الطفل بما يهمل من بزته وهندامه . فثيابه طويلة أو قصيرة . خشنة أو ناعمة . وكان عبد الرحمن يركض إليه حين يراه عائداً من الفرن وعلى رأسه طبق الخبز ليأخذ منه رغيفاً ساخناً . أو هو يرقب عودته من بولاق حتى يراه راكباً على حماره فوق حزم البرسيم التى

ذهب ليشتريها لبغلة الشيخ الكبير فيسارع إليه حتى إذا حط البرسيم عن ظهر الحمار رفع عليه عبد الرحمن ليقوده إلى مربطه ولا يلاقى الجناجى بعد ذلك كبير عناء فى تلقين الطفل شيئاً من القرآن وبهذه الوسيلة أمكنه أن يحفظ من سورة الشورى إلى سورة مريم .

ولا ندرى إذا كان عبد الرحمن يلازم فى البيت أخاه علياً ، ولا إذا عاشا معاً فى بيت واحد وهو لم يذكر لنا شيئاً عن ذلك ولعل كلا منهما كان محضوناً فى حجر أمه ناشئاً نشأة مستقلة عن أخيه ولعل علياً ابن إحدى الحرائر وعبد الرحمن ابن سرية فلا بد من التفرقة فى معاملة كل منهما حتما .

وقرأ الشيخ حسن فى وجه ابنه عبد الرحمن مخايل النجابة فلم يجد بأساً من اختلاف الطفل إلى أحد الكتاتيب المنبثة فى حى الأزهر حتى إذا يفع صار يختلف إلى مدرسة السنانية الواقعة فى رأس خطة الصنادقية وكلما انصرف من المدرسة إلى المنزل وجب عليه أن يعيد على أبيه أو على أحد الأشياخ ما تعلمه فى يومه ذاك .

ورزق الشيخ حسن الجبرتى سنة ١١٧٤ ابنين عرفنا اسم أحدهما حسنين فقط وقد هنأه بولادتهما تلميذه الشيخ محمد

الصبان فقويت نفسه وضمن بأولاده هؤلاء اتصال الذرية على الزمان .

وفى هذه السنة كان عبد الرحمن فى السابعة من عمره يقظ الذهن يستوعب كل صغيرة وكبيرة تجرى حوله بمقدار ما يمكن أن يستوعبها حدث غر مثله . وكان ميدان لهوه يمتد من خان الصاغة إلى بيت القاضى فالمشهد الحسينى فباب زويلة وما يتفرع من الغورية من خطط وحارات وعطفات كالحمزاوى والقشاشين والكعكيين وخشقدم وحارة الروم ولا شك فى أنه كان يصحب أباه إلى المساجد التى تؤدى فيها فريضة الصلاة أيام الجمعات والأعياد ولا شك أنه أيضاً كان يذهب مع أمه أو أحد أقاربه إلى مصر القديمة أو إلى بولاق للتنزه والتريض حيث كانت لهم رياض وغياض .

ويغلب على الظن أن الشيخ حسن كان يسكن أيام القيظ فى بولاق وقد تطول أيام القيظ فى القاهرة فيظل فى بولاق إشفاقاً على أولاده من غبار الحى الأزهرى وتحاشر الناس فيه لأن منزله فى الإبزارية على ساحل النيل يرتفع عشرين درجة عن مستوى الماء فلا غبار ولا تحاشر هناك بل النسمات العذاب تهب على النيل وتلطف من حرارة الجو .

وصحب عبد الرحمن أباه فى ليلة المولد النبوى الشريف لسنة

١١٧٧ إلى منزل السادة الوفائية فتكرم الشيخ أبو الإمداد إسماعيل سبط بنى الوفا فكنى عبد الرحمن أبا العزم ولعله فى نفس تلك الليلة كنى أخاه علياً أبا الإتقان ودون كاتب الكنى سيد أبو مفلح العجمى الشيشينى هاتين الكنيتين فى السجل الخاص.

وبلغ عبد الرحمن إذ ذاك سن التمييز وأخذت تنجلى الدنيا أمام عينيه لأنه ذكر فى تاريخه أنه أدرك سن التمييز فى العاشرة يريد بذلك انتباه العقل إلى ما يحيط به وانطباع الصور فى المخيلة وتنسيقها فى الذاكرة ومن المحال أن يقصد نضوج الفكر والإحاطة بالمدركات والصور. ومهما يكن من الأمر فقد اشتهر عنه أنه حفظ القرآن الكريم وهو فى الحادية عشرة.

ولم يتم فرح الشيخ بأولاده فهذا حسنين وصنوه يموتان وعلى مريض وعاودت الشيخ البلابل والأشجان وأصبح قلقاً مضطرباً موزع النفس بين على وعبد الرحمن وبينما هو فى مثل هذه الوساوس إذا الشيخ عبد الرحمن العريشى يستحثه لإلحاق عبد الرحمن برواق الشوام لتلقينه مذهب الحنفية. فاتكل الشيخ حسن على الله وأسلم ولده إلى العريشى يجاور فى رواقه ولم ينتقل فى تلك السنة ولا فى السنة التالية إلى الصنادقية بل بقى فى بولاق وحينما ظن علياً قد عوفى مما به جرى عليه القدر سنة ١١٧٩ وهو فى الثانية عشرة.

فاسودت الدنيا فى وجه الشيخ وحزن حزناً عظيماً وانحرف مزاجه وتوالت عليه النوازل وأوجاع المفاصل . فترك الذهاب إلى بولاق وغيرها ونقل العيال إلى الصنادقية ولازم منزله وصار يشغل نفسه بإملاء الدروس وتحرير الفتاوى .

وفى سنة ١١٨٢ رأى أن يسارع إلى تزويج عبد الرحمن وهو إذ ذاك فى الرابعة عشرة ولم يذكر لنا المؤرخ شيئاً عن زوجته هذه ولا عن أصلها وأهلها . ولاشك أن مسارعة أبيه إلى تزويجه دليل على خوفه الشديد من انقراض ذريته . وقد أرخ الشيخ عبدالله الإدكاوى هذا الزواج بأبيات بعث بها إلى الشيخ حسن وبيت التاريخ قوله

والحـــال إذا أرختـــه شمس البها زفت لبدرك

(١١٨٢)

ولا شك أن عبد الرحمن قطع المجاورة فى الأزهر وسكن فى الصنادقية لكنه لم ينقطع عن الأزهر فهو يحضر الدروس فى الحلقات ويحضر دروس والده فى المنزل فهناك يأخذ الفقه واللغة وهنا يأخذ العلوم الرياضية والحكمية والفلكية .

وكان أبوه يحس أن ابنه هذا إذا مد الله فى عمره سوف يكون له شأن فى الدنيا فكان يذاكره الدروس منفردين فى غير ساعات الدروس وكان يحدثه عن آبائه وأجداده وأنهم ينتسبون

إلى مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وجدهم الأعلى زين الدين عبد الرحمن الجبرتي نزح من بلاد الجبرت بالحبشة إلى الحجاز وجاور في مكة مدة ثم جاز بحر القلزم إلى مصر ودخل الجامع الأزهر واجتهد حتى تولى مشيخة رواق الجبرتية وأعقب ولده شمس الدين محمداً الذى تولى أيضاً مشيخة الرواق وكانت له كرامات مذكورة وقد خلف ابنه الشيخ نور الدين على الذى أعقب ولدين هما حسن وعبد الرحمن ومات عبد الرحمن فى حياة أخيه ولم يعقب وكان الشيخ حسن مفتى المسلمين وأعقب برهان الدين إبرهيم جد عبد الرحمن .

وأشهر كرامات سلفهما شمس الدين محمد أنه فى إحدى ليالى الشتاء بينما كان مكباً على القراءة فى الأزهر انطفأ السراج فجأة فأيقظ النقيب ليسرج له لكن النقيب تثاقل فى القيام وتباطأ فى المشى ذهاباً وإياباً وفى أوبته والسراج بيده دهش إذ رأى الشيخ يواصل القراءة ممسكاً بيده اليسرى الكتاب رافعاً سبابته اليمنى مضيئة له كالشمعة المشعلة .

وكان الشيخ حسن يرى لذة فى إصغاء ابنه إلى أحاديثه ومحاولته تفهم ما يسمعه واستيعابه فصار يقص عليه أحداث العصر وأخبار الولاة والأمراء والأشياخ الذين عرفهم وعرفوه من محمد بك جركس وإسماعيل بك إيواظ الملقب قشطة بك

وذى الفقار قانصوه إلى عثمان كتخدا ومحمد بك قطامش إلى صديقه الحميم عثمان بك ذى الفقار الذى خرج من مصر سنة ١١٥٦ واستئثار إبرهيم كتخدا بك ورضوان بك الجلفى بالحكم بعده ثم ظهور على بك الكبير فى أيامهما .

وكان عبد الرحمن يستزيد والده من أمثال هذه الأحاديث وتضحكه ألقاب بعض الأمراء كإسماعيل بك بارم ذيله . ويوسف بك القرد وأبو مناخير فضه . وتطوف برأسه أسماء هؤلاء الأمراء الأعاجم الذين يحكمون البلاد فى حين أن السادة العلماء لا يمتد سلطانهم إلى أبعد من مريديهم وحاشيتهم فيشرح الشيخ حسن لابنه مهمة العلماء وأنهم ورثة الأنبياء وأحباب الله وآحاد الأكوان وأفراد الزمان . بل هم « خلاصة خاصة الله فى خلقه » فيستفز هذا الكلام قلب الغلام ويصغى بكل جوارحه إلى أبيه الذى يفيض فى الحديث عن فضائلهم وكراماتهم وخصائصهم مبتدئاً من شيوخ الأزهر كالنشرتى ومحمد شنن والفيومى من المالكية ثم انتقال مشيخة الأزهر إلى الشافعية بالشيخ عبدالله الشبراوى وهناك إلى جانب هؤلاء أشياخ أجلاء كتبوا وشرحوا وعلقوا وأفادوا وهم طبقات ، فالعليا أمثال الشرنبلالى والزرقانى والملوى والبابلى والشربينى ، والأولى أمثاله هو وأضرابه كالنفراوى والصعيدى والدردير والعدوى والحفنى والدمهورى

ومن الأشياخ شعراء يشار إليهم بالبنان كالشرقاوى واللقيمى والأنبوطى والسيوطى والإدكاوى وكلهم رفيع المقام. مسموع الكلمة لدى الأمراء يقصده الأعيان والتجار وكبار الناس لا بجاهه ولا لماله بل لعلمه وعقله فيحصن به دينه ويتبرك منه فى دنياه وهى نعم خصهم الله بها تميزاً لهم وإعلاء لكلمة الحق التى بها ينطقون .

وكان الشيخ حسن رجلا واسع التفكير بعيد النظر لا يقصر حديثه على الأفراد بل يتعداهم إلى الأحداث ويستنبط الصلات بينها ويستنتج لابنه كل سبب فيظهر له مثلا كيف كانت أيام الرخاء والرخص ووفرة الأغذية والأكسية تابعة لعدل الحاكم وإنصافه وتسويته بين الرعية وكيف أن الظلم مرتعه وخيم فإذا وقع شره المستطير على المظلوم كانت مغبته هلاك الظالم ونجاة المظلوم . فيقتضيه هذا الكلام عرض الأسعار والحاصلات وذكر تراخى الأسواق أو إستمنساكها وغلاء المعيشة وما إلى ذلك. أما مصر وخيراتها ونيلها وصعيدها فكان الحديث عنها طويلا طويلا . وأما عادات أهلها فيكفى الأصيلين منهم فخراً برهم بالفقراء وتعوذهم مد الأسمطة لهم . بل كفاهم فخراً أن أكثر خزائن الكتب فى بيوت أغنيائهم مبذولة لطلبة العلم يتداولونها كما يشاؤون ويستعيرون منها ما يشاؤون .

وكان يحدثه عن آل الشرايبي هؤلاء الكرام الأمجاد الذين عاش فى كنفهم مئات من الأسر الفقيرة والذين كانوا لا يقبلون من فلاحيهم زيادة على المال المقرر بل هم يقرضونهم ثمن البذور ويساعدونهم على زراعاتهم ويحسبون لهم هداياهم من أصل المال المطلوب منهم فى حين كان المماليك يبتزون دم فلاحيهم ويعسفون بهم عسفاً شديداً ويستنزفون خلاصة ما يغلون من الأرضين فلا يتركون لهم قوتهم وقوت عيالهم .

ولا شك أن دروس الشيخ حسن فى منزله ومذاكراته لابنه عبد الرحمن وأحاديثه عن الماضى والحاضر كانت تجلب السرور إلى قلبه وتدخل الصفاء على نفسه وشعر رويداً رويداً أن الجو حوله قد راق والدنيا هدأت نأمتها واستقرت . إلا أن هذا الصفاء لم يطل إذ وقعت فى منزله مأساة عجيبة جددت له الأسى وبعثت الغم والحزن إلى فؤاده ذلك أن زوجه بنت رمضان جلبي كانت لما حجت معه سنة ١١٥٦ أعجبت بجارية بيضاء معروضة عليه فاشترتها من مالها وأحبتها كل الحب وأحضرتها إلى مصر وأعتقتها وزوجتها الشيخ دون مبالاة وعاشتا متحابتين إلى سنة ١١٨٢ إذ مرضت السيدة فرضت الجارية لمرضها وصارت تطلب أن تموت قبلها فماتت فعلا وسيدتها غائبة عن حسها فلما أفاقت نادتها فقيل لها إنها نائمة فقالت بل رأيت فى المنام أنها

ماتت فقالوا لها حياتك الباقية ثم غسلوها بين يديها وذهبوا بجنازتها فرجعت السيدة إلى فراشها وهى تبكى وماتت آخر النهار فخرجوا بجنازتها فى اليوم التالى .

وقد انزعج الشيخ وأهل بيته وصحبه لهذا الحدث الغريب وبقى الشيخ ملازماً بيته موسوس القلب مشلول الإرادة لا يخرج إلا لأمر ذى بال أو باستدعاء أحد الأمراء .

وكان فى هذه الحالة لما أرسل عبد الرحمن العريشى سنة ١١٨٣ إلى إسلامبول بمهمة ناطها به على بك الكبير . وكان العريشى يلقى الدر المختار فى الأزهر فالتمست الجماعة من الشيخ حسن تكملة الكتاب فأكمله لهم فى منزله وكان ابنه عبد الرحمن يحضر على العريشى مع الشيخ الناشئ أحمد الطهطاوى فتصادق الفتيان وأصبح حسن الجبرتى يرى الطهطاوى كل يوم فى منزله متخلفاً يعيد الدرس مع ابنه عبد الرحمن ويفهمه ما صعب عليه فهمه فأحبه وصار كلما رأى ابنه وحده يسأله : أين رفيقك الصعيدى . . . ولعله إكراماً لابنه ولرفيقه الصعيدى أملى فى هذه السنة بمنزله متن نور الإيضاح بعد إتمام الدر المختار .

وكان الشيخ قد دفن من الأولاد أربعين ونيفاً ذكوراً وإناثا ولم يبق له إلا عبد الرحمن ودخلت سنة ١١٨٨ وقد بلغ

الشيخ السابعة والسبعين وفترت عزيمته ولانت شكيمته وفى ١٨ محرم أصيب بالهيضة الصفراوية ولم يلبث إلا اثنى عشر يوماً حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى غرة صفر من هذه السنة ودفن عند أسلافه بتربة الصحراء بجوار الشمس البابلى والخطيب الشربينى رحمهم الله جميعاً فطويت بموته عبقرية لم تعرف المائة الثانية عشرة أحفل منها علماً ولا أوسع أفقاً .

٣

ترك الشيخ حسن الجبرتى لابنه عبد الرحمن أموالا طائلة وخزائن حافلة . وترك له من الصداقات المؤثلة فى صدور أقرانه من الأشياخ ومريديه من الطلبة وأصدقائه من الأمراء والكبراء ما هو أغلى من الثابت والمنقول . بل ترك له من العلم الذى عمر به صدره ما هو أبقى له على الدهر وأنفس على العمر . وقد صرف عبد الرحمن همه بادئ ذى بدء إلى لم شعثه ، وانتظام أمره . لكنه متشائم من بيت الصنادقية لضيق أسافله واتساع أعاليه . وكانت صورة القاضى المولى حفيد أفندى لا تزال ماثلة فى ذهنه وقد زار والده فى يوم قائظ وهو رجل طاعن فى السن فما صدر إلى أعلى الدرج حتى استلقى على ظهره من الإعياء . ثم إن هذا المنزل خرجت منه جنازات كثيرة فهو يهجره حيناً حتى يرى رأيه فيه .

وانتقل عبد الرحمن إلى بولاق ولم يمنعه هذا الانتقال من المثابرة على الحضور فى الأزهر والاختلاف إلى الحلقات ، ذلك إلى جانب ضبط العقارات والأملاك التى خلفها أبوه فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة . وقد خلف أبوه أيضاً أملاكاً أخرى فى

جهات أخرى لعلها تجب زيارتها للإشراف عليها بل يجب على عبد الرحمن أن يطوف بلاد مصر ليعرف مواقعها ويتعرف على علمائها وكبرائها ويزور مساجدها ومشاهدها ويرى مرافقها ومصانعها ويشهد الفلاح فى قريته ، والزارع فى مزرعته . فما انتهت السنة التى توفى فيها والده حتى قام برحلة إلى الوجه البحرى على التخصيص .

وكان النيل أهم سبل المواصلات فى تلك الأيام لاضطراب الأمن واستفحال أمر الأعراب من قطاع الطرق . فلا يأمن المسافر فى البر إذا لم يكن مخفوراً أن يعتدى عليه ويسلب متاعه . ولكن لا بد من سلوك طريق البر للتنقل بين القرى التى لا تقع على شاطئ النيل . ولا شك أن الجبرتى برح القاهرة فى الأيام الأولى من سنة ١١٨٩ لأننا نشهده حاضراً المولد الأحمدي بطنطا وهو يبتدئ فى اليوم الثامن من المحرم ولا شك أنه ركب النيل من بولاق إلى كفر الزيات والمسافة لا تعدو سبعين ميلا يقطعها المركب فى ثلاثة أو أربعة أيام إذا أسعفته الريح وقد أسعفت الريح المركب الذى سافر فيه لأن تلك السنة الهجرية بدأت فى أواخر شتاء سنة ١٧٧٥م . ومن كفر الزيات سلك الجبرتى طريق البر إلى طنطا حيث أعجب بالمسجد الجامع الذى بناه على بك الكبير حول مقام سيدى أحمد البدوى

رضى الله عنه وراقته فخامة البناء والقبة والمكاتب والميضأة الكبيرة والمنارتان العظيمتان والسبيل والقيسارية النافذة من الجهتين وما بها من حوانيت التجار وتعرف في طنطا بالشيخ أحمد السماليجى الشافعى . وأخص ما يذكر عن هذا الشيخ أنه تزوج امرأه بارعة الحسن من بلدة الفرعونية ولدت له ابناً أسماه أحمد « كأنما أفرغ فى قالب الجمال . وأودع بعينيه السحر الحلال » . وقد مال إليه الجبرتى إعجاباً به فقال : إنه « حضر إلى ، وسلم على ، وآنسنى بحسن ألفاظه . وجذبنى بسحر ألحاظه » ولا بد أن هذا الفتى كان يقدر ما وهب من جمال حتى طلب من الجبرتى تميمة تقيه العين إلا أن الجبرتى بعد أن غادر طنطا نسيه ولم يرسل إليه التميمة ثم حضر السماليجى بعد ذلك إلى القاهرة مراراً وكان يزور الجبرتى بمنزله .

ولا بد أن الجبرتى زار أبيار وهى بلدة قريبة من كفر الزيات ذكر المؤرخون أنه كان لأسرته فيها أرضون ومزارع ثم سلك طريق النيل إلى فوه حيث صلى فى مسجد ابن نصرالله وقرأ على جدار هذا المسجد بيتين من الشعر بخط الشيخ عبدالله الإدكاوى تاريخهما سنة ١١٤٥ لم يذكرهما ثم حمله النيل إلى رشيد حيث زار الشيخ أحمد على الخضرى وأطلع على مؤلفين لوالده هما شرح لقطة العجلان وحاشية على شرح الأربعين

النووية للشبشيرى وشهد بأن المؤلف أجاد فيهما كل الاجادة ثم سافر براً من رشيد إلى إدكو حيث تفقد أوقاف الجبرتية وهى مسجد عظيم على البحيرة محبوسة عليه عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة كان أبوه ناظراً عليها ثم انتقلت نظارتها إليه بعد وفاة أبيه . ولا بد أن يكون استكمل هذه الرحلة بزيارة أبو قير والإسكندرية حيث اجتمع بالشيخ المسيرى المالكى عالم الإسكندرية وشيخها الأكبر لذلك العهـــد .

ورأينا الجبرتى فى هذه السنة عينها يرحل إلى دمياط ولا نعرف شيئاً عن هذه الرحلة فلعله عاد فى النيل من رشيد ثم انتقل إلى فرع دمياط من جهة قريبة منه . ومر بالمنصورة حيث زار جامعها الكبير ودخل إلى الزاوية التى بناها فى مؤخر الجامع الشيخ الموافى الكبير ودفن فيها وهى التى اتخذها ابن أخيه الشيخ عبدالله الموافى مقاماً له يحيى فيها الليالى بالذكر والتلاوة وكان هذا الشيخ لا يقوم لأحد ولا يدخل دار أحد وهو يجلس فى الزاوية على فراش عال بجانب ضريح عمه وقد فرح بمقدم الجبرتى وقدم له « طبقاً فيه قراقيش وكعك وشريك وخبز يابس ولبن وبوسطه دقه وجبن » ثم سقاه « قهوة فى فنجان كبير » .

وعلى ذكر أسفار الجبرتى نقول إنه لم يذكر عن نفسه أنه حج إلى البيت الحرام إلا أن حجه ثابت بدليل أنه لما ترجم للشيخ حسن العجمى المالكى صاحب الفنون ذكر أنه « ولد سنة ١٠٤٩ كما وجدته بخط والده بمكة » وليس فى تاريخه ما يزيد على هذا للدلالة على حجه صريحاً ولعله سافر إلى الحجاز بصحبة الأمير رضوان كتخدا إبرهيم بك الكبير لأنه فى ترجمة هذا الأمير قال عنه : « لقد بلوته سفراً وحضراً يافعاً وكهلا فلم أر ما يشينه فى دينه » ولم يقل عن غيره قط أنه بلاه سفراً وحضراً وقد سمى الجبرتى رضوان هذا أميراً من باب التجوز إذ قال عنه فيما بعد إنهم عرضوا عليه الإمارة فأبى . فهو لم يكن أيضاً أميراً للحج حتى نعرف متى خرج إلى الحجاز وليس هذا عسيراً بل يسهل استقراؤه من أخبار شهر شوال من كل سنة لأن المحمل يسافر عادة بين ١٧ و ٢٠ من هذا الشهر .

ولا شك أن الجبرتى زار الصعيد وجول فيه لأنه لا يذكر بلداً إلا حدد موقعه تحديداً صحيحاً يدل على معرفة تامة بجغرافية البلاد .

وعاد الجبرتى إلى القاهرة وعاد سيرته الأولى من الاختلاف إلى الأزهر وحضور حلقات التدريس وقد جاز العشرين من عمره واستكمل هيأته شاباً وسيم الصورة ، جعد الشعر ، أسود

العينين ، أسمر الوجه ، سبط القامة ، عذب الابتسامة ، حلو الحديث والمفاكهة ، متأدباً في السؤال والمبادهة ، مستملحاً في المجاذبة ، رحباً في المغالبة ، مقتصداً في المجاوبة ، كثير الاستبصار والتفكير ، طويل التأمل والتفرس ، لا يخوض في لغو ولا يعرض عن ملحة ، نافذ البصر والبصيرة ، طيب السيرة والسريرة . يحبه أصدقاؤه من الأشياخ وغيرهم لحسن صفاته ، وكرم خلاله ، ويحفظ الكبار منهم عهد والده . وكان أكثرهم زيارة له الجناجي والصبان والطائي والكردي ومحمد الأمير ورفيقه الصعيدي أحمد الطهطاوي وبخاصة شيخه المحبوب عبد ربه العزيزي المعروف بابن الست الذي ما فتىء يدعوه بابن خالتي وفي سنة ١١٩٠ أجازه بمسموعاته ومروياته وألقى عليه دائرة الشاذلي وأجازه بوضعها ورسمها ونقط مركزها كل ذلك في مجلس واحد بمنزله ببولاق على شاطىء النيل .

وأجازه أيضاً أكثر الأشياخ في شتى علوم الفقه واللغة وأكب هو على خزانة والده يستتم علوم الفلك والحساب والهندسة وغيرها وما عتم أن صار يعقد حلقات التدريس مثل أشياخه فأصبح دارساً ومدرساً وهو منتهى ما يصبو إليه شيخ فاضل في ذلك العصر .

وكانت هذه الحلقات تنعقد في الأزهر على الخصوص وفي

أشهر مساجد القاهرة وبعض بيوت المشايخ على العموم .

* * *

فى ذلك العهد كان قد استقر بالقاهرة عالم ولا كالعلماء وشيخ ولا كالشيوخ هو السيد أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدى نزح من اليمن وهبط مصر سنة ١١٦٧ وسكن بخان الصاغة ثم راح يحضر دروس شيوخ وقته كالشهابين الملوى والجوهرى والشمس الحفنى وغيرهم كالبليدى والصعيدى والمدابغى وحسن الجبرتى وأخذ عنهم جميعاً وأجازوه وسافر ثلاث مرات إلى الصعيد ووضع رسالة فى رحلاته هذه ثم تزوج واتخذ سكناً آخر بعطفة الغسال وانصرف إلى التأليف والتدريس وكان التأليف فى تلك الأيام لا يعدو حاشية على متن أو تعليقاً على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية المتعارفه . فشذ السيد مرتضى عن أهل زمانه ووضع معجمه الشهير المعروف بتاج العروس وسلخ فى وضعه سنين ولم يشأ أن يخرجه للناس كما تخرج التواليف العادية بل أدب يوم إخراجه مأدبة عظيمة فى غيط المعدية بالقرب من الأزبكية دعا إليها المشايخ والطلاب وأبرز لهم تلك العروس محلاة بتاجها . وطلب منهم أن يذكروا محاسنها ومباهجها . فتهافتوا عليها جميعاً يقرظونها نظماً ونثراً . فكانت هذه الدعوة مذيعة

للكتاب حتى أن محمدا أبا الذهب لما فرغ من بناء مسجده المعروف باسمه أمام الأزهر وأضاف إليه خزانة كتب كبيرة أفهموه أنها لا تستكمل نفاستها إلا إذا ازدانت بهذا المعجم فاشتراه بمائة ألف درهم..

هذا السيد كان قبلة الجبرتى ومطمح نظره ومثله الأعلى يلازمه أينما سار ويحضر عليه دروسه حيثما انتقل فمن خان الصاغة إلى سويقة اللالا إلى مسجد الحنفى بل هو يدعوه إلى بيته ويصحبه إلى بيوت الناس حيث يدعى الشيخ للقراءة .

أما طريقته فى التدريس .فغير طريقة المدرسين المصريين لأنه كان يسرد أسماء رواة سنده عن ظهر قلبه ويتبع ذلك بأبيات من الشعر فيعجب السامعون من هذا ولم يشأ أن يساير المصريين فى شكل عمامته ويقول الجبرتى إنه كان « يعتم مثل أهل مكة عمامة منحرفة بشاش أبيض ولها عذبة مرخية على قفاه ولها حبكة وشراريب حرير طولها قريب من فتر وطرفها الآخر داخل طى العمامة وبعض أطرافه ظاهر » .

ويغلب على الظن أن هذه المفارقات المجتمعة جعلت الناس يميزونه وينضوون إليه فسما قدره وتتلمذ عليه بعض الأمراء مثل أيوب بك الدفتردار ومصطفى بك الإسكندرانى وتهافت الطلبة عليه من كل حدب وصوب حتى كبار المشايخ أمثال

السجاعى والأكراشى والطائى ممن لهم حلقات مشهورة لا يستنكفون إذا فرغوا من الإلقاء أن يحضروا دروسه .

وكان لعبد الرحمن الجبرتى بين هؤلاء الطلبة كباراً وصغاراً أصدقاء أوفياء مثل حسين الدرب شمسى وسيدى إبراهيم جلبى ومحمد سليمان جمليان والشيخ أحمد يوسف الشنوانى ومصطفى صادق اللازجى والسيد على العاوى سبط آل عمر وإسماعيل وهبى المعروف بالخشاب والشيخ يوسف الدياربكرلى الواعظ وعلى عبدالله درويش الرومى وقد أخذوا جميعاً عن الشيخ فصيح ثعلب وفقه اللغة للثعالبى وأدب الكاتب لابن قتيبة وسمعوا كثيراً من شرحه على القاموس وكتبوا عليه الصحيح فى مجلدات وسمعوا فى الأمالى والشمائل وما كانوا كلهم شباناً بل منهم من علت به السن كالشيخ يوسف الدياربكرلى الذى توفى سنة ١١٩٣ وهو فى حدود المائة ومع ذلك كان يحضر على السيد مرتضى بجامع شيخون إلى سنة ١١٩٠ ولعل أنفذهم عبقرية كان السيد على العلوى فإنه من مواليد سنة ١١٧٣ فهو أصغر من الجبرتى سناً ومع حداثته فقد ألف كثيراً ونظم كثيراً وارتقى فى الصوفية مرتبة عالية ثم رأى كما يرى كبار الزهاد أنه لا نفع من كل هذا فأحرق كتبه كلها إلا كراساً نسيه عند الجبرتى الذى فقده وعثر عليه بعد وفاة صديقه سنة ١١٩٩ . والجبرتى

يسميه مع هذا « مرشدنا » .

وكان على عبدالله درويش وهو أيضاً طاعن فى السن أثيراً عند الجبرتى مرموقاً بالخير والصلاح يلازمه ملازمة الابن لأبيه ولا شك أنه كان يزوره فى بيته ويطلع على أحواله وشؤونه ويعرف أنه ضيق ذات اليد لكنه موفور الكرامة مصون المقام .

أما إسماعيل الخشاب فشاب عرفه الجبرتى يجلس بدكان أبيه سعد النجار بالقرب من باب زويلة وهو نحيف الجسم حاد الذهن كثير الحفظ يروى دواوين من الشعر وله نظم رائق وطالما زارا معاً بيت السادة الوفائية وحضرا الأذكار وسمرا مع كبيرهم لذلك العهد الشيخ شمس الدين أبى الأنوار الذى كان يخص إسماعيل هذا بالتفاته وعطفه وقد مدحه إسماعيل ببعض القصائد ونال بها حظوة لديه وإن لامه عليها الجبرتى لوماً عنيفاً .

ويطول نفس الكلام إذا رحنا نتحدث عن كل واحد من مريدى الشيخ مرتضى والحقيقة أنه كان يخصهم جميعاً بابتساماته الحلوة وألفاظه المعسولة فيزيدهم تعلقاًبه وإخلاصاً له ويصحب الكثيرين منهم فى غدواته وروحاته ، إلى أصدقائه ونزهاته . كاصطحاب الجبرتى إياه فى الذهاب إلى الجمالية للسلام على الشريف الرحالة على عمر القناوى الحسينى لما استقر بالقاهرة

سنة ١١٩٤ وتعريفه به وعقد آصرة الود بينهما حتى صار الشريف يختلف إلى الجبرتى فى بولاق باستدعاء وبغير استدعاء .

* * *

تلك هى البيئة التى انخرط فيها عبد الرحمن الجبرتى بعد وفاة أبيه وقد عاد من رحلته التى ذكرناها وأقام ببولاق وهى لذلك العهد حافلة بمساكن الكثيرين من الأشراف والإعيان تفصلها عن القاهرة أرض فضاء طولها ميل واحد ومع قصر هذه المسافة كان الذهاب إليها والأوبة منها على بغلة أو حمار مشقة وجهداً لذلك ارتأى سنة ١١٩١ أن يهدم دار خطة الصنادقية التى بقى حانقاً عليها ويبنيها من جديد على غير الطراز الذى كانت عليه أيام والده . وتقع هذه الدار إلى يمين السالك فى الخطة من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلابة . فرسم لها الجبرتى بابا شارعاً على الخطة ينفذ إلى مدخل قصير تقوم إلى يمينه مصطبة من الحجر النحيت ثم ينفذ منه باب يفتح على رحبة مربعة واسعة غرس فيه وسطها حديقة صغيرة تبسم فيها بعض الأزهار وشاد إلى يمين الرحبة أقبية منها إصطبل للدواب وهرى للغلال ومطبخ كبير به فاصل تركم فيه الأحطاب والفحم وحفر بئراً بجانبه وبنى بصدر الرحبة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها لسكن الخدم

والعبيد وبعضها للضيوف والاستراحة وواحدة منها بالغة الإتساع للطلبةوانعقاد حلقة التدريس وبجانب باب هذه الحجرة سلم قليل الدرج يصعد إلى الطبقة العليا مفضياً إلى ممشى يدور بالطبقة كلها مشرفاً على الرحبة عقوداً تنتظمها أعمدة من الرخام الملون . ونسق حول الممشى غرفاً شتى وجعل العقد الداخل ليواناً يرتفع درجتين ، ويقوم على بائكتين بدلا من واحدة . وتأنق فى تنظيمه فزين سماءه وجدرانه بالخشب المحفور والمنجور وأنواع القيشانى الملون وأقام حوله خزانتين فيهما الآنية الفاخرة ورفع فيه أرائك ثمينة وكسا أرضه بالسجاجيد ناثراً عليها الطراريح الحريرية وسماه « مجلس العقد الداخل » وجعل له بابين ملبسين بالأصداف والنحاس البراق أحدهما يفضى إلى القاعة الكبرى التى يجلس فيها كبار الزائرين . وقد عقد روشناً فى سمائها تموج حوله ألوان زاهية صافية ونوع فيها السجاجيد والمقاعد والأرائك وحشد فيها التحف المنثورة فى الزوايا والمعلقة على الجدران وأضاءها بأنواع الثريات المغصنة بالبلور والشماعذ الوهاجة وافتن فى زخرفتها وفرشها وأما الباب الآخر فيفضى إلى خزانة الكتب وغرف النساء والعيال . وعلق فى عقود الدار وأفنيتها المصابيح المبلورة والقناديل الفضية المختلفة الأشكال والأنواع . وكسا جميع الزوايا والأركان والرحاب بصنوف الرياش الغالى والأثاث

الثمين. وأنفق عليها مالا جما حتى استتمها قرة العين وبهجة الخاطر ولما فرغ من بنائها سنة ١١٩٢ هنأه الشيخ مصطفى أحمد الصاوى بأبيات من الشعر جاء فيها قوله يصف مجلس العقد الداخل :

مكان على التقوى تأسس مجده ومن سور التوفيق والهدى سوره
ومجلس أنس كل مافيه مشرق ومقعد صدق قد تسامى حبوره
بناء يروق العين حسن جماله ورونقه يشفى الصدور صدوره
ومن مجد بانيه تزايد بهجة وقلد من در المعالى نحوره

وبيت التاريخ قوله :

ودام به سعد السعود مؤرخاً حمى العز بالمولى الجبرتى نوره
(١١٩٢)

وقد طرز الجبرتى هذا الشعر على قطعة من الحرير علقها بصدر المجلس وضمن بهذه الدار تعدد زيارات شيخه وأستاذه السيد مرتضى وإخوانه الأشياخ والطلبة وانتظام حلقته فى بيته إذا لم يتمكن من الالقاء فى الأزهر وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه ببولاق ومشتاه بالصنادقية .

ولعله لم يفكر فى الزواج ثانية عند فراغه من بناء الدار ونحن كما قلنا لا نعرف شيئاً عن زوجه الأولى لكننا نعرف أنه بعد بناء الدار بثلاث سنين تزوج ربيبة صديقه وخليطه على عبد الله درويش الرومى وقد تحدث عن هذا حيث قال : « فتزوجت

بربيته فى أواخر سنه ١١٩٥ برغبة منه وهى أم الولد خليل فتح الله عليه . ولما حصلت النسابة والمصاهرة حولته بعياله إلى منزلى لتعب الوقت وتعطيل أسباب المعاش » . ولم يذكر الجبرتى غير هذا عن أزواجه وأولاده وقد كتب ما كتبه سنة ١٢٢٠ بعد أن مات على عبدالله سنة ١١٩٩ وقد أثنى ثناء عاطراً على ورعه وتقواه ويظهر من ترجمته أنه كان رجلا مثقف العقل غزير الاطلاع يجيد الخط العربى إجادة فائقة . وقد أفاد الجبرتى كثيراً من معلوماته عن رجالات العصر الذين ترجم لهم وتوفى على درويش عن تسعين سنة ونيفاً . « لم تهن قواه ولم يسقط له سن ويكسر اللوزة بأسنانه » .

٤

استهل القرن الثالث عشر الهجري والسيد أبو الفيض محمد مرتضى قد بلغ الذروة من الشهرة والصيت ولم يكن ذلك لخلو مصر من العلماء بل لأن كبارهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى فى الربع الأخير من المائة المنصرمة بل مات لفيف من أعاظمهم فى العقد الأخير منها كأنما كانوا على موعد معها . فتوفى الشيخ أحمد السجاعى والشيخ على الشنويهى سنة ١١٩٠ وتوفى شيخ مشايخ الأزهر أحمد الدمنهورى سنة ١١٩٢ وفى هذه السنة عينها توفى الشيخ مصطفى الطائى والقطب أبو المراحم عبد الرحمن العيدروس الصوفى العظيم وفى سـنة ١١٩٣ مات الشيخ عبد الرحمن العريشى والسيد قاسم التونسى الشاعر الطبيب وهما من أخصاء الجبرتى وسنة ١١٩٥ مات شيخه الصوفى صاحب الكرامات الخارقة محمود الكردى وسنة ١١٩٩ فجع الجبرتى بوالد زوجته على درويش و « بابن خالته » الشيخ محمد عبد ربه العزيزى المعروف بابن الست كما فجع بصديقيه الفرماوى والقلعى وسنة ١٢٠١ توفى أبو البركات الشيخ أحمد الدردير المشهور كما توفى كثيرون غيرهم وكانوا جميعاً زينة مصر فى ذلك

العصر. ولم يظهر بعد فى رأس المائة الجديدة من يخلفهم فى علمهم وورعهم وشجاعتهم لأن الموجودين الآن كالسادات والشرقاوى والأمير والمهدى والفيومى لا يزالون فى سن الشباب لم تنضج مواهبهم وملكاتهم بعد ولم تصهرهم الحوادث والأيام . لذلك خلا الجو للسيد مرتضى وتجاوز صيته حدود مصر إلى البلاد الإسلامية جمعاء فراسله سلاطينها وملوكها وأمراؤها وصار بيته محط الرحال وقبلة الزوار يؤمه أمراء مصر وأعيانها وكبار الحجاج العابرين بالقاهرة فى طريقهم إلى الحجاز .

ولقد بلغ الاستكبار والغرور بالسيد مرتضى حداً جعله يكتب إلى أحمد باشا الجزار أمير عكا « أنه المهدى المنتظر وسيكون له شأن عظيم » فلا عجب بعد هذا إذا كان لا ينهى بعض زواره من المغاربة عن تقبيل الأرض بين يديه والسجود له ولا عجب أيضاً إذا صار الكثيرون يعتقدون فيه القطبانية العظمى .

ـ وفى يوم من أيام جمادى الثانية سنة ١٢٠٣ بعد أن ألقى السيد مرتضى درسه المعتاد فى منزله بعطفة الغسال انتحى بالشيخ عبد الرحمن الجبرتى جانباً وقال له : « يا حبيبنا أنت تعلم أن همنا لا يعدو خدمة العلم والعلماء ولما كان المرء قليلا بنفسه كثيراً بإخوانه ، رأيت أنه ليس أوكد صلة بى منك لتكون لى عوناً على تحقيق أمر ذى بال » .

قال عبد الرحمن : المولى يأمر والعبد يأتمر .

قال السيد : عفواً فإنى منهمك فى الترجمة لأعلام المائة المنصرمة من مصريين وحجازيين ولا أعرف خيراً من ابنى وحبيبى عبد الرحمن الجبرتى مسعفاً لى على هذا العمل لنشأته فى بيت علم وصلاح وأدب واتصاله برجالات مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان ولذلك رأيت أن أعتمده لهذا الأمر ويقينى أنى أعطى القوس باريها .

فدهش عبد الرحمن من هذا الطلب الغريب وعجب كيف يلجأ إليه الشيخ مرتضى فى هذا وهو من هو علماً واطلاعاً وقدرة على الكتابة والتأليف . وشعر بكثير من الزهو يمازجه كثير من التهيب لأنه سوف يقترن اسمه باسم أستاذه وسوف يشاطره الفخر والفضل مع أنه لم يسبق له الاشتغال بالكتابة ولم يبحث فى غير الكتب العلمية المتداولة . وعجب لذكاء الشيخ وبعد نظره فى التفكير بالترجمة لأعلام المائة التى انقضت وغاظه أنه لم يفكر هو ولا أحد من أقرانه فى مثل هذا .

وكأنما قرأ الشيخ مرتضى فى وجه عبد الرحمن كل هذه المشاعر وغلبت عليه أستاذيته فأراد أن يملى درساً على تلميذه فقال له : لا تتعجل الأمر ، ولا تتباطأ فيه ، فى التأنى السلامة ، وفى العجلة الندامة ، وأوصيك بالالتفات إلى الأعلام المشهورين

« واذكر من أحبك فى الله وأحببته ، واستفدت منه شيئاً أو أنشدك شيئاً أو كاتبك أو كاتبته أو بلوت منه معروفاً وكرماً »

وفطن الشيخ مرتضى إلى هذا التضييق فى التوصية فقال للجبرتى : وعليك بالتخير والتحرز ، واعلم أنه ليس كل من نبه ذكره ، عظم فضله . وقد ينبت الفضل فى الصدور الوضيعة ، وتغمر الدنيا أصحابه فيجب التنقيب عنه والتنقير عليه . وذوو الفضل أقران فيه : لكنهم يتفاوتون فى درجاته ومراميه . فإياك والإسراف . وعليك القصد . والله المستعان .

وانصرف عبد الرحمن ثم أمسى وأصبح وهذا الأمر شغله الشاغل يدير وجوهه ويقلب جوانبه . وتزاحمت فى رأسه أسماء الذين ماتوا ممن سمع عنهم وممن عرفهم وتذكر أحاديث والده عن أسلافه وأشياخه وعن الأمراء والكبراء فاختلطت الوجوه فى مخيلته ، واصطفقت الصور فى رأسه ، ونهضت أمام عينيه المبانى الفخمة التى تحمل أسماء بناتها والمساجد العظيمة المنسوبة إلى العظماء الذين شادوها ابتغاء مرضاة الله ، والحوادث الجسام التى تروى عن ولاة الحكم من العادلين والظالمين . فأعوزته التواريخ لمعرفة السنين وتنسيق الأحداث وتنظيم الأسماء حتى يعرف من أين يبتدئ وإلى أين ينتهى ومن يقدم ومن يؤخر .

وعثر فى خزانته على كتاب فى التاريخ لمؤلف مجهول اسمه

أحمد جلبي عبد الغني ثم كتاب الخلاصة للأميني ثم رسالة شرح الصدر في غزوة بدر التي ألفها الشيخ عبدالله الشبراوى بإشارة من الوالي على باشا الحكيم وفي آخرها نبذة في تاريخ ولاة مصر إلى أيام هذا الباشا . ولكن هذه الكتب لم تشف غليله فهو يريد أن يعرف تاريخ ميلاد كل واحد من الذين يجب أن يترجم لهم وتاريخ وفاته كما يجب أن يعرف خصائصه وأخلاقه ومقومات شخصيته ويطلع على كتاباته ويحيط بجلائل أعماله فالحاكم وحكمه . والعالم وعلمه والأديب وأدبه . وهذا المطلب شاق عسير بل هو خضم شاسع الأفق ، بعيد الغور . فطفق يدون الأسماء وكان طبيعياً أن يبدأ بالمشايخ وبمن كان منهم شيخاً للأزهر ثم أشياخ الأروقة وأرباب الحلقات والذين كان أبوه يسميهم الطبقة العليا ثم الطبقة التي تليها والتي تليها ممن مات أو لم يمت واشتهر بالعلوم الفقهية والعقلية والنقلية والشعر والأدب والخطابة . وكانت الترجمة لهؤلاء سهلة لامشقة فيها لأن أكثرهم عرف أباه وسمع عنه أو زاره في بيته . ولكن من له بالأمراء والعظماء وكبار الأعيان والولاة وهم من أعلام المائة بلا منازع . وشرع يدون أسماء أمراء الوجاقات والصناجق ومن بلغ منهم مشيخة البلد ومن شاركه في الحكم من فقارية وقاسمية وآل سعد وآل حرام والجلفية والقازدغلية وجماعة الفلاح

والعلوية والمحمدية . فطال الشرح ، واتسع الخرق ، وراح يتخبط فى متاهة لا يعرف لنفسه منها مخرجاً .

* * *

لم يوفق الجبرتى إلى صديق يستعين به على هذا العمل لأنه فجع منذ سنوات بصفوة أشياخه وإخوانه فقد مات صديقه العبقرى السيد على العلوى سبط آل عمر سنة ١١٩٩ ومات الشيخ موسى الجناجى سنة ١٢٠٠ ولا يمكنه أن يتكل إلا على من يخلص له الود فذكر رفيقه الصعيدى ولكن الشيخ أحمد منقطع للتدريس بالمدرسة الشيخونية والصرغتمشية وهو يسكن بعيداً منه بجهة الصليبة أما حسين الدرب شمسى فلا يصلح لها وحار الجبرتى فى أمره ورأى أنه لم يبق له إلا أن يولى وجهه شطر إسماعيل الخشاب وإن كان إسماعيل مبتلى ببلية كبيرة فهو منذ بضع سنوات كان له صديق بباب الفتوح يدعى أحمد العطار توفى عن زوج نصف وطفل صغير فتزوج إسماعيل الأرملة وتبنى الطفل ورباه وبر به ومنذ سنة أو تزيد كان الطفل قد يفع وبلغ فاحتفل إسماعيل له وأدب لأصدقائه وأهل زوجته ولم تمض أشهر ثلاثة حتى مات الغلام فجزع عليه جزعاً شديداً واختارت أمه دفنه بجامع الكردى بالحسينية واتخذت مسكناً ملاصقاً لقبره فهى اليوم تقيم به وتطبخ الأطعمة للمقرئين

والزائرين من أهلها ومن غير أهلها وإسماعيل يجلب لها النفقة بالحل والحرام وقد التحق شاهداً بالمحكمة وهو فى عسر شديد .

قال له إسماعيل : إن ما ندبك له السيد مرتضى عمل جليل وليت شعرى لا أعرف وجهاً يمكننى أن أفيدك منه .

قال الجبرتى : أنت من عدول المحكمة وفى المحكمة صكوك وحجج تدون فيها أسماء الناس ومناسبهم وأعمارهم فهل لك أن تنسخ لى شيئاً منها وإليك جدول ببعض الأسماء .

فأعجبت الفكرة إسماعيل وقال له : وهب أن العين الذى الذى تريد أن تترجم له لم يدخل المحكمة يوماً ولا ثبت له رزق ولا وقف ولا عقار فمن أين تحصل على معلوماتك .

قال الجبرتى : وأنت أيضاً تختلف إلى الديوان حيث دفاتر الكتبة والمباشرين ويمكنك أن تحصل لى منها على هذه المعلومات .

— حسن جداً ولكنك لم تعد الدفاتر .

— إنها تستبهم عليّ المائة الماضية إلى السنة السبعين وأما ما بعدها فأمور شاهدتها وأناس عرفتهم على أنى سوف أطوف بالقرافات وأقرأ المنقوش على القبور وأحاول جهدى أن أتصل بأقرباء الذين ماتوا فأطلع على إجازات الأشياخ عند ورثتهم وأراجع أوراقهم إن كانت لهم أوراق وأسأل المعمرين ماذا

يعرفون عمن عايشوهم ولا أرى بعد ذلك مرجعاً أعتمده غير ما طلبت منك .

* * *

وقد تعجل الجبرتى الترجمة لأشهر أعلام المائة الماضية وبذل جهداً عنيفاً فى تحرى الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة وتقصى آثار المترجم لهم لدى أهلهم وأصدقائهم وقد فعل هذا لئلا يستبطئه السيد مرتضى ويظن به الضعف والعجز . وقد جمع هذه التراجم فى كراريس عديدة كما جمع إلى جانبها كثيراً من الحوادث والوقائع فى أوراق متناثرة يسميها « طيارات » تستقل كل ورقة منها بحادث معين ينوى تحقيق صحتها فيما بعد ثم إنه حمل كراريس التراجم وذهب بها إلى السيد وفى هذا يقول الجبرتى : وكان عنده « بعض الشآميين فأطلعته عليها فسر بذلك كثيراً وطارحنى وطارحته فى نحو ذلك بمسمع من المجالس » ولعل هذه المطارحة كانت تصويباً وتبصيراً والسيد مرتضى رجل وافر الكياسة بالغ اللين والنعومة لا يسوئ على الجبرتى عمله . ولكنه لا يحسنه له كل التحسين . وقد أخذ السيد ما أخذ مما جمعه الجبرتى واستعان به على كتابة ما أراد كتابته وعاد عبدالرحمن نشيطاً فرحاًمستشعراً إصابته للهدف فخوراً برضى الشيخ عنه عازماً على التوسع فى الكتابة والتزيدمن المعلومات .

وانقضت سنة ١٢٠٤ ومرت أشهر من سنة ١٢٠٥ والجبرتى جاد فى عمله مكب على الكتابة يسود ويبيض ويحرر ويحرر . ويطلع السيد مرتضى على كتاباته . ويقدم له ما عنده من معلومات وشواهد . ولكن ما بالهم ينعون إليه فى كل يوم أميراً خطيراً . وصديقاً كبيراً أو صغيراً . وقد أجفل الجبرتى مع المجفلين حين تأكدوا أن الطاعون الأسود قد انتشر فى البلاد وأخذ يجرف الناس إلى القبور فداخلهم منه وهم عظيم ووقع الرعب فى القلوب فانفضت مجالس العلم وأقفرت حلقات التدريس . وتشتت شمل الإخوان ودارت الدوائر . واشتد الجزع . وأصبح كل امرئ مشغولا بنفسه عن سواه .

وقد وصف الجبرتى هذا الوباء وأفاعيله فى حوادث رجب سنة ١٢٠٥ فقال : « وزاد أمر الطاعون وقوى عمله بطول شهر رجب وشعبان وخرج عن حد الكثرة ومات به ما لا يحصى من الأطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء . . . حتى كانوا يحفرون حفراً لمن بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها وكان يخرج من بيت الأمير فى المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة وازدحموا على الحوانيت فى طلب العدد والمغسلين والحمالين . ويقف فى انتظار المغسل أو المغسلة الخمسة والعشرة ويتضاربون على ذلك ولم يبق

للناس شغل إلا الموت وأسبابه فلا تجد إلا مريضـــاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً فى تجهيز ميت أو باكياً على نفسه موهوماً ولا تبطل صلاة الجنائز من المساجد والمصليات ولا يصلى إلا على أربعة أو خمسة أو ثلاثة وندر جداً من يشتكى ولا يموت وندر أيضاً ظهور الطعن ولم يكن بحمى بل يكون الإنسان جالساً فيرتعش من البرد فيدثر فلا يفيق إلا مخلطاً أو يموت من نهاره أو ثانى يوم وربما زاد أو نقص أو كان بخلاف ذلك . . واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى جمعة واحدة » .

ولا ريب فى أن الجبرتى قبع فى داره ببولاق مدة اشتداد الوباء لأنه لا يعقل أن يموت أستاذه وشيخه السيد محمد مرتضى مطعوناً فى شعبان ١٢٠٥ فلا يمشى وراء جنازته ولا يصلى عليه بل لعله لم يبلغه نعيه إلا بعد حين وقد فجع الجبرتى فيمن عدا السيد مرتضى بالكثيرين من إخوانه الأصفياء . ودام وقوع هذا الطاعون من جمادى الأولى إلى أوائل رمضان ثم ارتفع .

وفى أواخر هذه السنة كان اندهاش الجبرتى عظيماً حين وصل إليه على يد السيد محمد التاجر القباقيبى كتاب وهدية من السيد أبى المودة محمد خليل المرادى الحسينى مفتى دمشق يسأله إرسال ما جمعه السيد مرتضى وما جمعه هو من تراجم

الأعيان ويقول في كتابه : « وهذا ما حررناً بخصوصه لأحد من العلماء ولا من التجار واعتمدنا على الجناب بذلك اعتماداً على المحبة الموروثة ولعلمنا أن جنابكم أولى بذلك من كل أحد ولا سيما ما بلغنا أن السيد ترجمكم » . ويجب أن نفهم من إلماع السيد خليل المرادى إلى المحبة الموروثة أنه كان صديقاً للشيخ حسن الجبرتي ولعل الذى ترجم له الشيخ مرتضى هو الشيخ حسن نفسه لا ابنه عبد الرحمن وعلى أى حال فان عبد الرحمن الجبرتى فطن الآن إلى السبب الذى حدا بأستاذه الشيخ مرتضى إلى الترجمة لأعلام المائة الماضية فلم يكن ذلك وليد قريحته ابتداء بل نزولاً على رغبة قاضى دمشق وإنما ندبه للتعاون معه لأنه يمنى لم تتأصل مصريته بعد ولم يستبطن دخائل الحياة المصرية وعاداتها ونزعاتها . والجبرتى وإن كان حبشى الأصل إلا أنه الحفيد السادس لعبد الرحمن جده الأعلى الذى نزح إلى مصر منذ مائتى سنة ونيف واستوطنتها سلالته منذ ذلك فالجبرتى مصرى أصيل مطلع على تسلسل الأسر عليم بما بينها من أواصر ودوافع . ومصالح ومنافع . وضغائن ومنازع . والآن من أين له أوراق أستاذه وكراريسه . وهو قد انتقل إلى الرفيق الأعلى واحتلت الشحناء منزله . ونشبت المنازعات بين ورثته على تركته . وقد علم عبد الرحمن من حسن الحريرى أحد أخصاء

أستاذه المرحوم أنه توفى يوم الأحد وأن زوجته وأهلها أخفوا موته حتى نقلوا إلى دورهم كل ما ترك من نفائس وذخائر ثم أشاعوا موته يوم الإثنين وأقيمت الزوجة وصية على التركة من لدن القاضى . لذلك شعر الجبرتى بالأسف المرير على الجهد الذى بذله فى البحث والتحرير . ولم يطل أسفه لأن حسن الحريرى هذا جاءه بعد أيام يبلغه أن أرملة السيد عازمة على تزوج أحد الأجناد . وقد فتحوا التركة وأظهروا ما أظهروه منها وأعلنوا بأمر القاضى أنهم سوف يبيعونها بالمزاد .

وأكبر الظن أن الجبرتى لم يحضر المزايدة مع أنه اشترى « الكتب والدشتات » التى كانت للسيد وبلغ الثمن الذى بيعت به التركة مائة ألف درهم .

وظفر الجبرتى فى هذه الأشتات بأوراق الشيخ كلها وفيها رسائله وشعره وكل ما كتبه مما لم يخرجه للناس أما التراجم فكانت مدونة فى عشرة كراريس مرتبة على حروف الهجاء سماها « المعجم المختص » ذكر فيها شيوخه ومن أخذ عنه أو ساجله أو جالسه من رفيق وصاحب . ولكنها كانت ناقصة وفيها بياض كثير . وغالب من ترجم لهم آفاقيون من أهل المغرب والشام والحجاز حتى السودان . ومنهم من لم يشتهروا ولا لهم

بضاعة بين الأحياء والأموات وقد أغفل الكثيرين من كبار العلماء والأعاظم .

وعثر الجبرتى فى تلك الأشتات على الكتاب الذى أرسله مفتى دمشق إلى السيد مرتضى وتاريخه ربيع الثانى سنة ١٢٠٠ يذكر له فيه أنه كان فى بلاد الروم (يريد إسلامبول) قبل العام المذكور وهناك يقول المرادى : « جرى ذكر التاريخ وفقدانه فى ذلك الوقت وكان بالمجلس أحد الأفاضل فقال إن الأستاذ آبا الفيض مرتضى باشر تأليف تاريخ عظيم باشارة هذا وأشار إلى فقلت نعم قد كنت حرضت الأستاذ بجمع ذلك ولا أدرى كيف فعل قال بل اجتهد وأحسن . . . » ثم ذكر السيد خليل أنه وضع من التراجم « ما بلغ نحو ثلاثة مجلدات ضخام ونحوها زيادة باقية فى المسودات هذا عدا تراجم أبناء العصر وشعرائه الذين فى الأحياء . . . فتراجمهم مجموعة بمجلد آخر » .

ولا شك فى أن الجبرتى بعث إلى المفتى رداً على كتابه وقد أيقظت حميته هذه المراسلة وقوت نفسه أوراق شيخه المرحوم فشحذ غرب عزيمته . وشرع فى جمع ما عنده وعاد إلى التدوين والتحرير والتنسيق والتنضيد وهو يرجو أن يخدم التاريخ أولا ومفتى دمشق ثانياً . وذكرى شيخه مرتضى ثالثاً . وقد

أسعفته الأقدار فى الأولى وحدها فقط لأنه لم يمض طويل زمن حتى نعى إليه الشيخ خليل المرادى الذى توفى فى حلب فى آخر سنة ١٢٠٦ ويقول الجبرتى : « لا أدرى ما فعل الدهر بتاريخه المذكور (١) » وقد فت نعى المرادى فىَ عضد الجبرتى ففترت همته وطرح تلك الأوراق فى زوايا الإهمال حتى كادت تتناثر وتضيع .

---

(١) نشر هذا التاريخ فى ثلاثة أجزاء باسم « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر تأليف العلامة أبى الفضل محمد أفندى خليل المرادى مفتى دمشق الشام المتوفى سنة ١٢٠٦ » وقد وهم المستشرق بروكلمان حين كتب عن الجبرتى فزعم لنا أنه نقل كتاب سلك الدرر من التركية إلى العربية وقد سايرت بروكلمان فى هذا الوهم دائرة المعارف الإسلامية مع أن الكتاب لا يحتوى إلا على تراجم شيوخ وعلماء وأدباء وشعراء من أبناء اللغة العربية وكان الحامل على هذا الخطأ ما جاء فى آخر الجزء الثانى أنه « تم بحمدالله الجزء الثانى من سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر فى ٦ شعبان سنة ١٢٩١ لمحمد خليل المرادى، الذى ترجمه الجبرتى ويليه الجزء الثالث وأوله السيد عبد الرحيم وبالله التوفيق » . ففهم بروكلمان من عبارة « ترجمه الجبرتى » أنه نقله إلى العربيه وإنما أراد كاتبها ترجم له الجبرتى أى كتب تاريخ حياته فقط. وهذا الخطأ اللغوى قاد إلى ذلك الخطأ التاريخى فتأمل .

٥

إن الفكرة الصحيحة التى تصيب ذهناً صحيحاً كالحبة الطيبة التى تصيب أرضاً طيبة كلتاهما تنمو وتترعرع ولا بد أن تأتى أكلها ولو بعد حين .

أجل إن فكرة التاريخ والتراجم غرست فى عقل الجبرتى فمهد لها المغرس وشق لها طريق النمو بما جمع من هنا وهناك وهنالك من المعلومات والمراجع . وقد نهج لها المنهج الصحيح الذى تسلكه حتى تفضى إلى غايتها لا يعوقها عائق ، ولا يعتورها خطل . فإذا لم يندفع فى تحقيقها عقيب موت أستاذه السيد مرتضى والسيد خليل المرادى صاحب الفكرة فلعله استشف فيها أنها غاية يقصر دونها العمر ومطلب لا تفيد فيه العجلة والاندفاع لذلك ركدت الفكرة فى ذهنه سنوات تعد طور الحضانة لها وفترة الانفعال أو التفاعل .

وتوسط الجبرتى العقد الرابع من عمره وهو مشغول بالدراسة والتدريس ولعل ابنه خليلا كان قد ولد له فهو يتعهده كما كان أبوه يتعهده هو . وقد يكون ولد له سواه ولكنه لم يذكر لنا شيئاً عن هذا .

وكان وقته موزعاً بين البيت والأزهر فالدروس فى البيت قليلة نادرة ولكنها فى الأزهر منتظمة مستمرة وقد هدم ذكريات طفولته بهدمه بيت الصنادقية وتشييده من جديد ولكن هذه الذكريات فى الأزهر ماثلة حاضرة كيف لا وهو لا يزال يرى نفسه مجاوراً فى رواق الشوام إذا فرغ من حضور الحلقة هرع إما إلى الرحبة أو إلى القاعة الكبرى حيث ألوف الطلبة يفترش بعضهم الحصر المبسوطة أو الأرض الممهودة ويمشى البعض الآخر جيئة وذهوباً وفى أيديهم الكراريس الصفر يتذاكرون ما فيها وكان يلاحظ نودان رؤوس القاعدين المستندين إلى أعمدة القاعة الكبرى كأنما هذا النودان يحصر الذاكرة ويهيؤها لانطباع المدروس فيها وبين هؤلاء المجاورين من قطع البحار والقفار ينشد العلم فى هذا المعهد العظيم الذى ينتظم العالم الإسلامى من بحر العرب إلى بحر الظلمات ومن مجاهل الصين والهند إلى حدود بلاد الصقالبة حتى مجاهل أفريقيا وطالما امتلأت نفس الجبرتى حبوراً وكبرياء حين يتصور أنه وأسلافه خدموا الأزهر وأخلصوا له فكافأهم بأن رفعهم ومكنهم فى الأرض ثم هو يدخر لهم ثواب الآخرة وهو خير وأبقى .

وقد أحب أشياخه كلهم وكان فى صغره يتهيب كبارهم ويتحامى المثول أمامهم تعظيماً وتبجيلا أما اليوم فهو يعجب

لنفسه من ذلك الحياء ولعله سنة ١١٩٠ وقد جال فى صدره مثل هذا الخاطر أراد أن يرى شيخ الأزهر وهو يومئذ الشيخ أحمد الدمنهورى فذهب إلى زيارته ببولاق والشيخ مريض لا يبرح داره وفى هذا يقول الجبرتى : « فلما عرفنى تذكر الوالد وبكى وعصر عينيه وصار يضرب بيده على الأخرى ويقول ذهب إخواننا ورفقاؤنا ثم جعل يخاطبنى ويقول يا ابن أخى ادع لى . . . وكان آخر من أدركنا من المتقدمين » .

أجل مات المتقدمون وصار هو وأقرانه المتصدرين للتدريس والإفتاء يتهافت عليهم الطلبة ويقبلون أيديهم ويتبركون بهم وهو قد سلك مسلك أبيه من ركوب بغلة فارهة يذهب بها إلى بولاق .وإذا مر ماشياً فى الأسواق والعطفات قام له الباعة احتراماً وتبجيلا وربما وقف على الدكاكين يسأل عن السلع وأثمانها ووفرتها وقلتها ويحاول أن يستنبط أسباب ذلك كما يوحى إليه فضوله العقلى .

وأصبح صديقه إسماعيل الخشاب لا يزوره إلا مصطحباً شاباً وسيم الطلعة مديد القامة واسع الصدر بعيد ما بين المنكبين براق العينين خفيف العارضين تدل قسمات وجهه على أنه مغربى الأصل لكنه يلبس لباس المصريين ويتكلم بلهجتهم لبعد عهد ذويه بالمغرب ولم يكن هذا الفتى الناشىء سوى الشيخ

حسن العطار الذى اشتهر فيما بعد وأصبح شيخاً للأزهر وهو ابن الشيخ محمد كتن العطار . ويذكر الجبرتى أنه كان يرى الشيخ حسن حاضراً فى حلقة الشيخ محمد الصبان حين ألقى حاشيته على الأشمونى فى علم النحو كما رآه حاضراً بعض دروس الشيخ مرتضى فى فقه اللغة ، والشيخ محمد الأمير فى بعض مؤلفاته الفقهية واللغوية . إلا أن هذا الفتى كان يرهقه أبوه فى شؤون عطارته فلا يتسع وقته للمثابرة على الدراسة ، ولما كان دكان والده قريباً من باب زويلة حيث دكان سعد الخشاب سهل عليه التعرف باسماعيل ولم يكن أصلهما المتواضع وحده سبباً فى توثيق أواخى المحبة بينهما بل هو ائتلاف الأمزجة ، واتفاق الطبائع . وكل منهما أديب شاعر يشدو الجمال ويستبين الفكرة الفنية فى شعور مبهم . ولا شك فى أنهما كانا برمين بالدروس الفقهية وما فيها من خلاف ومجادلة ومعاياة ومناضلة . مع أنهما أخذا أصولها واستكفيا بها وأما الفروع وما يتشعب منها والدقائق وما ينجم عنها فقد زهدا فيها ورغبا عنها إلى الأدب والشعر وما فيهما من رقة وعذوبة ، وعاطفة صادقة ومكذوبة . فهنالك الطلاقة التى ينشدانها ويصبوان إليها .

ومما يذكر لهما بالحمد أنهما فهما نفسية عبد الرحمن الجبرتى وميزاه عن سائر الأشياخ وفطنا إلى اتساع ذهنه ورحابة صدره،

وأخذه من علوم عصره بأوفى نصيب. بل هو يتجاوز عصره بتفكيره الفذ وثاقب نظره إلى الناس والحوادث.

قال عبد الرحمن: إن الشعر حلى وزخرف والأدب أداة للتعبير فى لفظ سهل جميل وإنما هما من متاع الدنيا فإذا جعلا أصلا كان ذلك جناية على الآخرة.

قال العطار: هذه نظرة ضيقة فإنما الشعر والأدب طبيعة فى النفس ولا تجنى الطبيعة على المرء إلا إذا وجهها إلى الشر، وما دام يملكها ويدفعها فى السبيل السوى فعاقبتها خير وأبقى.

قال الخشاب: نحن فى عصر غطت فيه العلوم الفقهية على كل علم آخر، ونحن نريد إحياء الأدب وتاريخه، والشعر ومادته. ولا سبيل إلى هذا. ثم هل تظن أنه لولا الشعر والأدب كان يمكننى أن أجالس مصطفى بك المحمدى أمير الحاج وحسن أفندى العربية والشيخ السادات وغيرهم؟

قال الجبرتى: لعل هذا هكذا ولكن الاشتغال بالعلوم الفقهية أبقى ثواباً.

قال الشيخ حسن: ولماذا؟ ما دام الدين مصوناً متبوعاً.

قال الخشاب: عفواً فإنى تبحرت فى الصوفية وأولعت بها وأكاد أضاهيك فيها يا عبد الرحمن وأؤكد لك أن الإيغال فى أسرارها تفتق الشاعرية فيكون الشعر جزءاً منها ويكون الاشتغال

بها على هذا القياس أبقى ثواباً أيضاً .

فضحك الجبرتى وقال : لو كان ما تقوله صحيحاً لكنت شاعراً مثلك الآن .

قال الشيخ حسن : ولكنك شاعر فى نفسك لا تنظم الشعر بل تحسه .

* * *

ولعل كثرة الدرس والتدريس أثرت فى صحة الجبرتى فقد شكا كثيراً « ضعف البدن . وضيق العطن » أما صديقه الخشاب فكان نحيف البنية ضعيف الحركة كما وصفه . ولعل هذه الموافقة جعلته يكثر من المطالعة فى تذكرة داود ظناً منه أنه بها يستفيد علم الطب ويستخلص طرائق تحضير الأدوية التى ينتفع وينفع صديقه بها ، وإلا فلا معنى لاشتغاله باختصار تذكرة داود فى كتاب لا يزال محفوظاً إلى الآن (١) .

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية نس ا ج .ا. ن . خ ١٣٦ ن . ع ٤٤٠٤ وعدد أوراقه ٢٤٦ وهو « مختصر تذكرة الشيخ داود الأنطاكى تأليف العلامة الهمام الشيخ عبدالرحمن الجبرتى الحنفى مذهباً غفر الله لنا وله » . وقد تمت « هذه النسخة المباركة يوم الخميس لأحد عشر يوماً خلت من شهر جماد آخر من شهور سنة ١٢٣٦ (أى فى حياة الجبرتى) بخط هلال ابن محمد بن هلال ... » وليس للكتاب مقدمة ولا خاتمة ولا ما يدل على نسبته إليه سوى ما ذكرناه .

وكان الجبرتى يحس بتعب شديد من معاناة الجدل الفقهى والغوص على حل المسائل الحسابية والهندسية فهو فقيه ولكنه (حيسوب) على حذ تعبيره فى وصف من يتقن العلوم الرياضية . وهو الذى حرر المحراب على انحراف القبلة لجامع أبى هريرة بالجيزة الذى عمره الأمير عبد الرحمن بك عثمان . وكان يلقى فى الأزهر وفى منزله علم الفلك والهندسة والحساب والفقه واتبع طريقة تدوين دروسه فى كراريس حتى حتى لا يحتاج إلى الاستعداد لها كلما ألقاها . وقد راجع كتاب والده فى الموازين والقبابين وعلق عليه وشرح غوامضه . وكانت هذه المسائل العلمية الجافة ترهقه وتنال من صحته فهو يستريح منها إلى قراءة ألف ليلة وليلة ويتسلى بما فيها من خرافات وأخيلة عجيبة غريبة . على أنه سرعان ما تنبه إلى أن هذه الأقاصيص قد اختلف ما فيها من خيال وتباين ما فيها من أسلوب . واسترعى نظره هذا الشعر المدسوس فيها ومنه ما نظم بعد العصر الذى جرت فيه الحوادث المروية . وقد قلنا إن فكرة التاريخ والتراجم وما كتبه إرضاء لشيخه السيد مرتضى ولدت فى نفسه عادة الكتابة والبحث وهذا أيضاً يفسر ما ورد عنه أنه وضع نقداً لكتاب ألف ليلة وليلة . ولعله عثر فى خزانة والده على كتب قديمة فارسية أو تركيه تمت إلى ألف ليلة وليلة بشىء من

الصلة حملته على وضع بحث جامع فيها ولا يبعد أن يكون له إلمام بالتركية أو الفارسية ما دام أبوه كان يتقنهما . وقد أكد المؤرخون أن بحثه الانتقادى فى ألف ليلة وليلة قد فقد، فاكتفينا بالإشارة إليه .

٦

هزم بونابرت المماليك فى معركة أنبابة التى يسميها الفرنسيون معركة الأهرام يوم السبت ٧ صفر سنة ١٢١٣ (٢٣ يوليو سنة ١٧٩٨ م) فهرب إبرهيم بلك شرقاً ومراد بلك جنوباً . وتواترت أخبار الهزيمة إلى القاهرة فانتشر فيها الهرج والهلع وظن الناس الأظانين فتطايروا إلى الريف محتملين ذخائرهم ونفائسهم وما هو إلا أن ابتعدوا عن القاهرة حتى تلقفهم الأعراب وسلبوهم أمتعتهم وأموالهم فرجعوا أدراجهم عراة محسورين . ولم ينج إلا من كانوا فى كثرة مخفورين .

وكان بونابرت قد أرسل من الإسكندرية منشوره المشهور إلى أهالى مصر وخيل إليه أن الناس صدقوا ادعاءه بأنه حضر إلى مصر ليستخلصها من ظلم المماليك لذلك لزم مكانه بعد المعركة ودهش حين لم يحضر إليه أحد . وفاته أن منشوره العجيب لم يقنع المسلمين ولا أرضى النصارى .

ولما ذهب إليه وفد على رأسه الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى علم منهما أن المشايخ الكبار هربوا « فقال لهم : لأى شىء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوان

لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان ثم انفصلوا من معسكرهم . . . »

أين كان الجبرتى فى هذا كله . . . ؟

إنه لم يذكر عن نفسه شيئاً ولكن أهله قالوا عنه بعد موته للمسيو الكسندر كاردان أنه ذهب إلى أبيار وأن بونابرت استدعاه وعينه عضواً فى ديوانه . . .

وهذا كلام نصدق الشق الأول منه فقط وهو أن الجبرتى برح القاهرة ووصل إلى أبيار ونجا من الأعراب لأنه بلا شك كان مخفوراً أما الشق الثانى فتفسيره أن الصاوى والفيومى لما سألهما بونابرت أن يكتبا إلى المشايخ الهاربين كتبا إليه فيمن كتبا إليهم فعاد إلى القاهرة ولكن بونابرت لم يعينه عضواً بالديوان .

وأغلب الظن أن صديقيه الخشاب والعطار لم يبرحا القاهرة . ولما عاد عبد الرحمن الجبرتى من أبيار بعد غيبة لم تطل أكثر من عشرة أيام شعر أن جو القاهرة قد تغير وعهدها القديم قد تبدل فهؤلاء الغرباء قد ملكوا القلعة وانتشروا فى البلد وسكن كبيرهم بونابرت قصر الأمير محمد بك الألفى بالأزبكية بخط الساكت الذى أنفق عليه الأمير أموالا عظيمة ولم يكد يتمه ويتوافد عليه المهنئون حتى ألجأه الفرنسيون إلى الهرب وعلم

الجبرتى أن المماليك قد انتهبت بيوتهم وصودرت أموالهم ولم يبق لهم أى أثر . وما كاد يجتمع بإخوانه الشيوخ حتى عرف أن عشرة(١) منهم يؤلفون ديواناً ينظر فى مصالح العباد . وما عتم الجبرتى حتى رأى القاهره تموج بالجنود وهم يتأدبون مع الأهالى . فإذا اشترى أحدهم سلعة دفع ثمنها كاملا بلا مساومة . ورأى دكاكين عديدة فتحها الأهالى لبيع المأكولات كما فتح بعض الأروام محالّ لبيع الأشربة والخمور . ولفت نظر الجبرتى مطعم أنشأه بعض الإفرنج فيه عدة مجالس على كل منها علامته ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخلون فيجلسون يأكلون ويشربون ويدفعون ما وجب عليهم ثم ينصرفون . ولكن شق عليه أن يرى الكثيرين من صعاليك الأقليات قد ارتفع مقامهم وأصبحوا ذوى حول وطول .

وكان بونابرت يتحبب إلى المشايخ ويكثر من أسباب اللهو للناس ليشغلهم بإقامة الحفلات والزينات فى الأزبكية والمشهد الحسينى والمقياس وأراد أن يظهر للمصريين أنه راغب فى تدريبهم على حكم أنفسهم فأنشأ ديواناً عمومياً مؤلفاً من ١٨٠ عضواً يمثلون أقاليم مصر ولكن هذا المجلس لم يجتمع إلا مرات

---

(١) فى رواية الجبرتى عشرة وفى رواية نقولا الترك ثمانية وفى رواية الفرنسيين سبعة .

معدودات حتى نشبت فى جمادى الأولى ثورة القاهرة وكانت هوشة طائشة اتسع نطاقها فى الأحياء المطيفة بالأزهر ولم تطل أكثر من ست وثلاثين ساعة وقد أغلظ بونابرت فى قمعها ولم يسجح ولا قبل فى المتهمين وساطة وسيط ولا شفاعة شفيع وعطل الديوان والمجلس وبعد شهرين عاد فأنشأ ديواناً عاماً جمع ستين عضواً تنتظم جلساته فى فترات معينة ويتفرع منه ديوان مؤلف من أربعة عشر عضواً هو الديوان الخصوصى أو الديمومى لأن أعضاءه يعقدون جلساته كل يوم وظل هذا الديوان قائماً والحوادث تترى . . .

وقد أراد بعض المؤرخين أن يعلل الخطأ الذى تورط فيه الذين ترجموا للجبرتى وهو تعيين بونابرت إياه عضواً فى الديوان فقالوا ربما عينه فى الديوان العمومى ولكن هذا الديوان كان يضم أعضاء انتدبتهم الأقاليم ليمثلوها فيه فهو مجلس نيابى. ولم تكن للجبرتى أهلية تخوله عضويته وقالوا بل ربما ألحق كاتباً بالديوان وهذا أيضاً لا يتفق ومقام الجبرتى وثراءه بل فيه تقليل لشأنه ونزول به عن درجة أقرانه نظنه لا يرضى به .

* * *

لقد أصبح الفرنسيون عنصراً جديداً فى الحياة المصرية فاختلطوا بالناس واتصل كبراؤهم بكبراء المصريين ووضعاؤهم

بوضعائهم وكان الجبرتى يذهب مع صديقيه الخشاب والعطار إلى بركة الأزبكية لمشاهدة الحفلات العامة وبخاصة الحفلة التى أقيمت فى ٢٠ جمادى الثانية وأعلنوا أنهم سيطيرون بها مركباً فى الهواء ثم أخفقت تجربتهم . وشهد الجبرتى تغيير معالم القاهرة وهدم البيوت والمصاطب وقلع الأشجار وتوسيع الطرق وأعجبه أنهم لا ينقلون الأتربة بالمقاطف على الأكتاف بل فى عربات يد يدفعونها دفعاً فيتحقق العمل بها سريعاً . وشاهد الجبرتى تدريب العساكر وكيف يقف « المعلم والمتعلمون مقابلون له صفاً بأيديهم بنادقهم فيشير إليهم بألفاظ لغتهم كأن يقول : « مردبوش » فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها ثم يقول « مرش » فيمشون صفوفاً إلى غير ذلك » وهذه الطريقة فى التدريب هى التى سماها فيما بعد « النظام الجديد » والعساكر الذين تدربوا بها دعوا جنود النظام الجديد . ولعل الجبرتى لم يحضر الاجتماع الذى دعا بونابرت إليه مشايخ الديوان ليروا التجاريب العلمية التى يقوم بها علماء الحملة وهو الاجتماع الذى وقف فيه الرياضى مونج والكيميائى برتوليه يعرضان على المشايخ كيفية استخراج المساحيق المفرقعة والمياه المجمدة . وأراد بونابرت أن يدهش المشايخ بما يحدثه التيار الكهربائى من اختلاج الجثث التى يطلق عليها كأنما ردت إليها الحياة

لكنهم لم يدهشوا ولا استفزتهم هذه التجارب بل سأل الشيخ خليل البكرى الكيميائى برتوليه إذا كان يمكنه أن يكون فى مراكش والقاهرة فى آن واحد فلم يجبه برتوليه على سؤاله فقال له الشيخ البكرى ألا ترى أنك لست ساحراً . . .

ولم يذكر الجبرتى هذا الحادث ولا شك أنه نمى إليه حتى دفعه الفضول إلى زيارتهم بصحبة الشيخ السادات بل هو زار مراراً خزائن كتبهم ومصانعهم وشهد تجاريبهم العلمية واطلع على تصاويرهم ورسومهم وآلاتهم وفى ذلك يقول « وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم . . . ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعونى على ذلك فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظراً إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين وفى الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس . . . » وذكر الجبرتى الآلات العجيبة التى رآها عند توت الفلكى ولكنه لم يذكر

اتصاله بالفلكى نوى مع أنه عرفه وسأل عنه فى آخر أيامه كما سيأتى . وأعجبته فى بيت ابرهيم السنارى صور المشايخ التى رسمها أراجو وأدهشه ما يصنعه رويا فى بيت ذى الفقار كتخدا من تجاريب كيماوية ومستحضرات طبية وشهد فى بيت كاشف جركس تحضير الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاءة والحلالة قال الجبرتى : ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصبّ منها شيئاً فى كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماآن وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلا جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا . . . وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء ويظهر له صوت وطقطقة فإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلا بها

ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلا به حصل ذلك له ولو كانوا ألفاً أو أكثر ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة تنتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا » ولا يغرب عن الذهن ما تنطوى عليه العبارة الأخيرة من معان . . .

وكان المستشرق مرسيل مدير المطبعة صديقاً حميماً للشيخ محمد المهدى كاتم سر الديوان يجتمع به فى دار قاسم بك مع نفر من العلماء يسمرون فى الحديقة تحت أشجار الليمون ولا بد أن يكون الجبرتى اتصل بهم وسمر معهم أما صديقه الخشاب فقد اتصل بشاب فرنسى من علماء الحملة اسمه ريج كان جميل الطلعة يروى الشعر العربى ويحفظ كثيراً من الآيات القرآنية وقد أحب الخشاب ريج هذا وتغزل به وذكره فى شعره قال :

أريج زكى المسك أنفاسك التى
أريج شذاها قد تبسم عن عطر[1]

(١) هكذا ذكرها الجبرتى وهكذا وردت فى ديوان الخشاب المطبوع بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ ولعله تنسم بالنون لا بالباء

أما حسن العطار فكان كثير الجد والتفكير فى كل ما يشهد من أفعال هؤلاء العلماء والأجانب ويقيس ما عندهم بما عند علماء مصر فيرى البون شاسعاً والفارق عظيماً .

على أنه ما كان المصريون ليرضوا عن الفرنسيين ولا صدق أحد منهم منشورات بونابرت التى كانت تنهمر عليهم كل يوم وفيها أنه يحب المسلمين ويعظم الاسلام ويسفه عقائد النصارى وقد زعموا أنه وعدهم باعتناق الإسلام وبناء مسجد يوسم باسمه ومن العجب أن بونابرت العبقرى لم يفهم أن المصريين رأوا فى مسلكه هذا حيلة مفضوحة لا تجوز على الجهلاء بله العلماء .

ولا شك فى أنه لولا اختلاف الدين لرسخت قدم الفرنسيين فى مصر كما رسخت قدم الأتراك فيها من قبل ومن بعد ثم هضمت مصر الأتراك وأنستهم أصلهم وأصبحوا أبناءها البررة الأوفياء .

فاختلاف الدين كان إذن السبب الجوهرى فى عداوة المصريين للفرنسيين . وهناك أسباب أخرى نفرت منهم القلوب يمت أغلبها إلى الأخلاق والسلوك . فالفرنسى خفيف النفس يحب اللهو والمرح والخمر والنساء ويجهر بمجونه وخلاعته . والشرقى بنشأته وتربيته يحب الستر والصون والحجاب والعفة . وحسبنا فى وصف الأسرة المصرية ما قاله الجبرتى عن أسرة الشرايبى أنه « لا تخرج من بيتهم امرأة إلا للمقبرة فإذا عملوا عرساً أولموا

الولائم وأطعموا الفقراء والقراء على نسق اعتادوه وتنزل العروس من حريم أبيها إلى مكان زوجها بالنساء الخلص » .

وقد قلب الفرنسيون هذه الأوضاع كلها وتبذلوا فى سلوكهم ومعيشتهم فكثرت فى أيامهم حانات الخمر واتخذوا ركوب الحمير ملهاة لهم فى الشوارع حتى قال حسن العطار :

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم　　فى مصرنا بين حمار وخمار

وأطلقوا الحرية للنساء فانتشرت الخلاعة وعم المجون وسرت عدواهم إلى أولاد البلد واختبط المجتمع المصرى بهم اختباطاً عظيماً .

وقد صور الجبرتى ما كان يفعله الفرنسيون تصويراً رائعاً فى أسلوبه التقريرى حيث قال : « لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحريرية الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن . . . » وطالما نعى الجبرتى على الفرنسيين : « شدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته

أو ضربته بتاسومتها (أى حذائها) ومما كان يزيد فى النكاية أنّ ضباط الاخطاط كانوا يتزوجون بالمسلمات من بنات الأعيان فتقبل المسلمات الزواج : « رغبة فى سلطانهم ونوالهم فيظهر (الزوج) حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها . وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس مثلما يمر الحاكم » . على أن هذه الحال لم تقتصر على النساء البيض بل عدتهن إلى الجوارى السود فإنهن : « لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً فنططن الحيطان ، وتسلقن إليهم من الطيقان » .

* * *

اقتنع بونابرت بعد فقدان العمارة الفرنسية فى مياه أبو قير بوجوب الاستكفاء بما عنده لاستحالة ورود النجدة من فرنسا فعمل على تركيز جيشه فى مصر وجرد حملته المشهورة على الشام وارتد عنها لاستعصاء عكا عليه وثأر لنفسه فى معركة أبو قير البرية إذ دحر الإنكليز والعثمانيين ثم سافر إلى فرنسا بعد أن عهد بالقيادة العليا إلى كليبر . وكانت سياسة بونابرت مزيجاً من الشدة واللين والصدق والكذب وقد نظم الإدارة تنظيماً دقيقاً

ونظم الجيش تنظيماً أدق ووزع على كل واحد من أعوانه مهمة خاصة سواء فى البحث العلمى أو العسكرى أو الإدارى وهو بعد لم يقم فى مصر إلا سنة وشهرين .

وكان خلفه كليبر يرى وجوب الجلاء عن مصر والعودة إلى فرنسا وقد فاوض العثمانيين والإنكليز فى ذلك وعقد معهم الهدنة المعروفة بهدنة العريش ولكن الإنكليز نقضوها بعد أن دخل القاهرة عشرة آلاف من الجنود العثمانيين على رأسهم نصوح باشا ومعه إبرهيم بك الكبير ومماليكه .

وأبى كليبر التسليم وحاربهم وانتصر عليهم فى معركة هليوبوليس ثم عاد إلى القاهرة فحاصرها وبدأ ببولاق فأفحش فى التنكيل بأهلها وأحرق دورهم وسبى نساءهم وأولادهم ونهب أموالهم وكر بعد ذلك على القاهرة فأمعن فى التضييق عليها وضربها بالقنابر وأشعل النار فى شوارعها وعطفاتها حتى فتحها عنوة واسترد سلطته عليها بعد أن تهدمت أحياؤها وخربت دورها وقصورها ثم أخذ كليبر القاهريين أخذاً عنيفاً بما فرضه عليهم من المغارم الباهظة مع أنهم راحوا ضحية الفرنسيين أنفسهم الذين نشروا شروط الهدنة وسمحوا للعثمانيين بدخول القاهرة وراحوا ضحية العثمانيين الذين منوهم الأمانى وخدعوهم بالأكاذيب وأخفوا عنهم هزيمتهم وانقطاع المدد عنهم على أنه ما عتم كليبر

أن اغتاله بعد شهرين سليمان الحلبي كما هو معروف وخلفه على القيادة الجنرال جاك منو .

ولا شك فى أن الجبرتى كان أيام تدمير بولاق فى منزله بالصنادقية وقد انحاز إلى المدافعين ، انحياز الناصح الشفيق الذى يحكم العقل وينكر الطيش ولقد شفى نفسه تقريع الشيخ السادات لإبرهيم بك الكبير واتهامه بأنه جر على الأقاليم هذا الهول والويل ومما قاله له : « كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم وآخر أمرنا معكم ملكتمونا للإفرنج . . . » وقد حمل الجبرتى على القادة حملة عنيفة لأنهم أخطأوا التدبير وغرروا بالناس فأهرقت دماء بريئة ، وزهقت أرواح طاهرة . وقد حز فى صدره سلوك رجل مغربى تصدر لقيادة العامة وصار يأمر وينهى ويهدد بنقض الصلح الذى أبرموه « وهو ليس ممن له فى مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال ، ورأيه فى الصلح افتيات وفضول ودخول فيما لا يعنيه » .

أما حسن العطار فقد هاجر إلى أسيوط حيث أقام ثمانية عشر شهراً كان يراسل الجبرتى خلالها وقد نجاه الله من الطاعون الذى اجتاح بلاد الصعيد ومات به مراد بك وكثير من الأمراء والناس وكان مراد بك قد هادن الفرنسيين فأمروه على الصعيد ولم يمالىء عليهم حتى موته .

وكان جاك منو قد أظهر الإسلام وسمى نفسه عبدالله وتزوج امرأة مسلمة من رشيد اسمها زبيدة ورزق منها غلاماً اسمه سليمان فسلك مع المصريين مسلكاً رفيقاً وأراد أن ينهج سياسة إسلامية مصرية فانشأ ديواناً على نسق جديد ليس فيه خصوصى ولا عمومى بل هو ينتظم كما قال الجبرتى « تسعة معممين لا غير ليس فيهم قبطى ولا وجاقلى ولا شامى ولا غير ذلك .. هم الشيخ عبدالله الشرقاوى رئيس الديوان والشيخ المهدى كاتب السر والشيخ الأمير والشيخ الصاوى وكاتبه والشيخ مرسى السرسى والشيخ خليل البكرى والسيد على الرشيدى نسيب سارى عسكر والشيخ الفيومى والقاضى إسماعيل الزرقانى وكاتب سلسلة التاريخ السيد إسماعيل الخشاب والشيخ على كاتب عربى وقاسم أفندى كاتب رومى وترجمان كبير القس رفائيل وترجمان صغير إلياس فخر الشامى والوكيل الكمثارى فوربيه » واختاروا لهذا الديوان بيت رشوان بك بحارة عابدين وعينوا له عشر جلسات فى كل شهر.

ولفظة كاتبه الواردة بعد اسم الشيخ الصاوى تعنى عبد الرحمن الجبرتى(١) وطالما مر بها القراء سراعاً وظنوها كاتب الشيخ الصاوى

---

(١) جاء فى الصفحة ٤٤٠ من الجزء الخامس عشر من كتاب وصف مصر أن الفرنسيين لما أصلحوا مقياس الروضة أرسل أعضاء الديوان إلى كبير المهندسين كتاب شكر تاريخه ٧ شعبان سنة ١٢١٥ وذكر فى هامش =

وقد كررها الجبرتى مرة أخرى حين عاد الإنكليز والعثمانيون واستولوا على رشيد وأبو قير وزحف يوسف باشا بعساكره على القاهرة فأخذ الفرنسيون رهائن من المشايخ وهم الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى وكان على الرشيدى قد سافر مع ابنته زوجة منو إلى الاسكندرية فأمروا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم كما يقول الجبرتى « البكرى والأمير والسرسى وكاتبه أن يكون نظرهم على البلد » .

فأصبح الجبرتى إذن من الرؤساء وصار له رأى فى القضايا وكلمة فى الدوائر العليا كما نقول اليوم وهو مركز يمكنه من الاطلاع على المكاتبات والمراسلات وتدوينها فى كراريسه بحروفها كما يطلع على محاضر الجلسات التى يحررها الخشاب ويحفظ لنفسه صورة منها لا كما كان أيام بونابرت لا تصل إليه إلا المنشورات التى تذاع على الجماهير والأخبار التى تتناقلها الألسن .

وقد تكون هناك صلة بين تعيين الجبرتى عضواً فى الديوان

= الصحيفة أن الديوان لذلك العهد كان مؤلفا من خليل البكرى وعبد الله الشرقاوى وسليمان الفيومى ومحمد الأمير ومحمد المهدى وعلى الرشيدى وعبد الرحمن الجبرتى ومصطفى الصاوى وموسى السرسى وقد ذكرت الأسماء بهذا الترتيب .

وتعيين إسماعيل الخشاب كاتباً لسلسلة التاريخ واو كان الشيخ حسن العطار فى القاهرة ما كان بعيداً أن يعين أيضاً فى وظيفة ما .

وعلى كل حال فقد أعجب الجبرتى بعناية القوم كما يقول « بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم ثم يجمعون المتفرق فى مخلص يرفع فى سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها فى جميع الجيش حتى لمن يكون فى غير مصر من قرى الأرياف فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكرنا كان هو (أى الخشاب) المتقيد برقم كل ما يصدر فى المجلس من أمر ونهى أو خطاب أو جواب وقرروا له فى كل شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيداً فى تلك الوظيفة مدة ولاية عبدالله جاك منو حتى ارتحلوا من الإقليم » .

ويستفاد من هذا الوصف أن الخشاب كان يدون محاضر الديوان فقط ولا شأن له فى تحرير جريدة بريد مصر ولا العشريات المصرية اللتين تصدران بالفرنسية ولم تكن له يد فى مشروع صحيفة يومية عنوانها التنبيه غمرتها الحوادث فلم تصدر .

وقد أسهب الجبرتى فى نقل الأحاديث التى كانت تجرى

فى ذلك الديوان ولا بد أنه كان من المتصدرين فيه وإن أبى أن يذكر ذلك عن نفسه تواضعاً منه لأن الوكيل فورييه حين قال لأعضاء الديوان كأنما يعتذر عن حوادث بولاق والقاهرة : « إن الذى أوجب الاغتصاب والعسف إنما هى الحرب ولو دامت المسالمة لما وقع شىء من هذا » أجابه بعض أهل الديوان ولا بد أنه الجبرتى وإن لم يذكر ذلك : « سنة الملوك العفو والصفح وما مضى لا يعاد فارحموا واعفوا عما سلف . . . »

وكانت تقع بين الوكيل والأشياخ مناقشات طريفة نعتقد أن الجبرتى كان من أكبر المساهمين فيها نكتفى بالإشارة إليها هنا .

ولم يطل أجل هذا الديوان إلا أشهراً استولى خلالها العثمانيون والإنكليز على رشيد وأبو قير والرحمانية وحصروا منو فى الإسكندرية وزحفوا إلى القاهرة وتحرج موقف الفرنسيين وهم مع ذلك يتجلدون ولا يستضعفون حتى انعقد الصلح وتخلوا عن القاهرة يوم الجمعة ٢١ صفر سنة ١٢١٦ وجلوا عنها يوم الأربعاء ٤ ربيع الأول من هذه السنة بعد أن تحكموا فيها ثلاث سنوات وواحداً وعشرين يوماً .

ودخل الجيش العثمانى القاهرة وعلى رأسه يوسف باشا ففرح الناس لهم فرحاً عظيماً وتجاوزوا لهم عن المظالم التى استهلوا

عهدهم بها لأن رجوعهم معناه استعادة السيادة الإسلامية على الأقاليم وهى أمنية الكافة التى جادوا بالأرواح والأموال فى سبيلها .

وكان الجبرتى قد دون فى كراريسه فظائع الحملة الفرنسية ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت إليه واطلع عليها فرأى أن يشاطر الناس فرحهم ويحتفى معهم بهؤلاء العثمانيين فوضع كتاباً اسماه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » أهداه إلى الوزير يوسف باشا واستهله بقوله : « حمداً لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هى العليا . وجعل الدولة العثمانية والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا » ثم ذكر فضائل مصر وفتح العثمانيين لها وألمع إلماعة خاطفة إلى استقرار المماليك فيها وذكر أن الدولة : « استنامت إلى المماليك اتكالا على شجاعتهم فخربوا الثغور . وشادوا القصور » لذلك سهل على الفرنسيين فتح مصر « ولقد كادت تعم الرزية . وتصير القضية أندلسية » لولا عناية السلطان سليم « غياث المسلمين . ملاذ المؤمنين . مالك رقاب الأمم . . . » بتوجيه وزيره يوسف باشا لاستنقاذها فكان مثله فى هذا مثل سميه يوسف الصديق عليه السلام . ثم افاض فى سرد حوادث الحملة كما فصلها فيما بعد فى تاريخه العام ولكنه لم يذكر شيئاً عن اتصاله بالفرنسيين

وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاريبهم العلمية ومفاوضة علمائهم وأغفل وثائق محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر وأكثر من نعوت الخبيث واللعين والخاسر ولم يذكر عن نفسه أنه كان عضواً فى الديوان الذى أنشـأه منو بل قال « هو ديوان واحد مركب من تسـعة أشخاص وكاتبين مسلمين وكاتب فرنساوى وترجمانين كبير وصغير والوكيل المسمى فوربيه » ولم يترجم لمن مات من المشايخ بل أورد نبذا قصيرة عمن مات من الأمراء فقط ووقف بالتاريخ آخر شعبان سنة ١٢١٦ « لأنه لما كانت حوادث الأيام لا تقف على حد . واستقصاؤها لا يدخل تحت قدرة أحد . ناسب أن يجعل ختام هذا التاريخ شهر رمضان المعظم . وأن يكون عقد شهوره بواسطته متمم . . » ثم عدد فضائل شهر رمضان المبارك إلى أن قال : « وأيضاً إن شهر الصيام مقدمة شهر العيد . الذى هو موسم السرور المديد وقد كان قدوم المشار إليه (يريد الوزير يوسف باشا) نظر الله بعين الرعاية إليه ، مفتاح أبواب المسرات التى أطال انغلاقها . ومعيد بهجة مصر التى كسف بظلام الكفرة إشراقها . ثم لسدته التى هى ملثم شفاه الإقبال . ومحط رحال أفاضل الرجال . أهدى كاسد هذا التصنيف . وخامل هذا الترصيف . فإن لاحظه بعين القبول وذاك هو المتيقن والمأمول . راج فى

معالم الأدب سوقه . وبطالع السعود لاح شروقه » . وختمه بهذين البيتين :

سعد تاريخنا بإقبال صدر بمعالى ثنائه مسطور
فلهذا يقول بشرى أرخ باجتناء السرور جاد الوزير
(١٢١٦)

ولا شك أن هذين البيتين من نظم الشيخ حسن العطار الذى ضمن هذا الكتاب فصولا من إنشائه المسجوع وخاصة تعليقه على قصيدة الصيرفى التى مدح بها أحمد باشا الجزار وهى ثمانون بيتاً أو تزيد أدرجها بحروفها ونقدها لغوياً وعروضياً .

وجرى الجبرتى فى أساوبه مرسلا حيث يسرد الأحداث اليومية . ومسجوعاً حيث يصف المعارك والفتن . وقد تعمد أن يكون واقعياً مقرراً . لا إنشائياً محرراً . حتى جاء كتابه شهادة عيان . لا مقطوعة بيان . ولا بد أن الذين طالعوه أيامئذ تبينوا أنه قطعة من سلسلة سابقة لا كتاب مستقل . ولعله بادئ ذى بدء لم ينتشر إلا بين الأخصاء .

ولا شك أن الوزير يوسف باشا لحظ الكتاب بعين القبول لأنه بعد أوبته إلى دار السلطنة عرضه هناك على السلطان سليم فأمر السلطان كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى التركية

ففرغ من نقله إليها سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧ م) .

ونكاد نؤكد أن يوسف باشا علم أن الجبرتي ليس مؤرخاً فحسب بل هو أيضاً عالم فلكي فأكبر علمه وعهد إليه بتحرير التقاويم والتوقيت ورتب له جعلا على ذلك .

٧

لم تعرف القاهرة أشأم من السنوات الأربع التى مرت بها منذ خروج الفرنسيين إلى ولاية ساكن الجنان محمد على باشا . فقد اختبطت الأجناد وتطاحنوا فيما بينهم وطرد الوالى محمد باشا خسرو وقتل على باشا الطرابلسى كما طرد أحمد باشا خورشيد . وبطش الأرناؤوط بالانكشارية الذين كانوا يزعمون أنهم « فخذ السلطنة » فلم يستقم أمرهم بعد ذلك ولولا الإنكليز لأباد العثمانيون طائفة المماليك الذين أخفقوا فى ارتجاع سلطانهم البائد . وكانت مصر مراحاً لعبث الأجناد وإفسادهم من عثمانية ومغاربة وإنكشارية وأرناووط ودالاتية فتفاقم الاعتداء على الناس بالضرب والسلب والنهب حتى القتل وكثر خطف العمائم عن الرؤوس وخطف الحمير والجمال والنساء والغلمان . . فالدور تغتصب . والحرمات تنتهك . والمغارم تفرض . والمظالم تزيد. والمصادرات تتعدد « وتمنى أكثر الناس وخصوصاً الفلاحين أحكام الفرنساوية » وفحش الأمر جداً قبلى وبحرى حتى وقف حال الناس ورضوا عن أحكام الفرنسيس » .

« وتمادى قبائح العسكر بما لا تحيط به الأوراق والدفاتر

بحيث إنه لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات غالب الجهات ، إما لأجل امرأة أو أمرد أو خطف شيء أو تنازع وطلب شر » « وفجروا بالنساء . . . الأبكار . . . بالغلمان . . . وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم . واشدة قهر الخلائق منهم وقبح أفعالهم تمنوا مجيء الافرنج من أى جنس كان وزوال هذه الطوائف الخاسرة الذين ليس لهم ملة ولا شريعة ولا طريقة يمشون عليها . »

وأكبر الظن أن الجبرتى لم يعتزل الحياة العامة كما نقول اليوم ولم يقصر اشتغاله على العلم والتأليف بل خاض مع المشايخ فيما خاضوا فيه من الاهتمام بشؤون الرعية بقدر يسمح له بالالتفات إلى مشاغله الخاصة فقد كان الثناء على كتابه مظهر التقديس قوى عزمه على المضى فى كتابة التاريخ ولا بد أن يكون نمى إلى علمه رضا السلطان سليم عن كتابه . ثم إن لديه من جهة أخرى كتباً يريد أن يستكمل تأليفها منها كتاب فى الفقه الحنفى وكتاب فى الحساب والفلك وتعليق على كتاب الموازين الذى ألفه والده وهى بلا ريب مجموعة الدروس التى كان يلقيها على طلابه فهو راغب فى استيفاء أبحاثها وجمعها فى مجلدات مستقلة . كذلك فطن الجبرتى إلى قلة الكتابة فى عصره فعزم على وضع كتاب فى المراسلات يقدم به نماذج

ينهج نهجها الطالب . ويحذو حذوها الراغب . وهناك أولاده قد كبروا ووجب عليه أن يلاحظ دراستهم ويوجههم التوجيه الذى يتفق ومنشأه وبيئته وهناك أيضاً أملاكه وعقاراته وأرزاقه وأحباسه لذلك كان خوضه فى الشؤون العامة لا يكاد يتجاوز المشورة والرأى وقد علمنا منه أنه كان يزور محمد بك الألفى والأمير ذا الفقار البكرى ويحضر مجالس أحمد خورشيد باشا ويختلف إلى المشايخ والأعيان .

وأما الخشاب فألحق بديوان الوالى ولم ينفصل عن المحكمة وهو الذى أنشأ بقلمه الأوامر التى أصدرها الوزير يوسف باشا إلى الأقاليم . وقد عاد الشيخ حسن العطار من أسيوط على أثر رجوع العثمانيين . ولكنه لما رأى القاهرة تموج بالشغب وتضطرب بالفتن أجمع أمره ورحل إلى الشام .

* * *

فى سنة ١٢٢٠ هب المصريون للذود عن حقيقتهم من جور أحمد خورشيد باشا وقد أرهقهم بما فرضه عليهم من مغارم وسامهم من مظالم . فحصروه فى القلعة والتفوا حول محمد على ليكون والياً عليهم بدلا منه وكان على رأس هذه الحركة القومية السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وكبار المشايخ فبايعوا محمد على وولوه من قبلهم ثم بردوا إلى دار السلطنة بما جرى

وكتب قنصل فرنسا إلى دولته : « هذه هى المرة الأولى التى نرى فيها أحد الباشوات ينادى به الشعب . . . »

وكانت الفتنة قائمة منذ أشهر وحصار القلعة مستمراً والقنابر تنهمر على القاهرة ولكن الناس لم تنخلع قلوبهم خوفاً لأنهم تعودوها أيام الفرنساوية ولم تهدأ الفتنة إلا بعد وصول الرد من إسلامبول بعزل أحمد خورشيد وتولية محمد على ابتداء من ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٢٠ (١٢ مايو سنة ١٨٠٥) وراح بعد ذلك أعداء الباشا الجديد يدسون لدى السلطان فى الخارج ويثيرون عليه الفتن فى الداخل . وكان عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى أميرين من المماليك مختلفين إلا على محاربته . وفى إسلامبول محمد باشا خسرو وأحمد باشا خورشيد كلاهما موتور ناقم . وما جاءت سنة ١٢٢١ حتى حضر قبطان باشا إلى مصر مستصحباً والياً جديداً لها هو موسى باشا حاملا فى حقيبته أمراً سلطانياً بتولية محمد على ولاية سلانيك . ولكن محمد على كان واسع الحيلة فلجأ إلى الذين ولوه وهم العلماء والرعية يستوضح رأيهم فكتب السيد عمر مكرم والمشايخ معروضاً إلى الدولة على يد قبطان باشا يعربون فيه عن تعلقهم بمحمد على ويطلبون استبقاءه فى الولاية . وكان قبطان باشا قد بحث

(١) راجع مختصر تاريخ مصر جزء ٣ صفحة ٢١٢.

فى الموقف وطاب نفساً بمكارم محمد على فنبذ صيغة هذا المعروض واقترح صيغة أخرى سرعان ما حرروها ووقعها عموم المشايخ والكبار والأعيان عن لسان الرعية وقفل قبطان باشا راجعاً ومعه موسى باشا وهو راض كل الرضا عن محمد على ورجاله .

ونعتقد أن الجبرتى وقع هذه المعاريض فهو لم يذكر شيئاً عن الأول منها الخاص بالمبايعة وعزل أحمد خورشيد باشا بل روى المعروض الثاني بحروفه وهو الذي طلب قبطان باشا تغيير صيغته أما الثالث فقد تعجلوا وضعه ولفقوه تلفيقاً ولم يتورعوا عن التزوير فى بعض توقيعاته وأختامه وفى هذا يقول الجبرتى : « هو السبب فى عدم نقلى هذه الصورة بل فهمت المضمون فقط » .

وبعد أن أحبط محمد على دسائس أعدائه فى الخارج التفت إلى أعداء الداخل فإذا بالحظ يمشى فى ركابه فيموت بعد ثلاثة أشهر عثمان بك البرديسى ويقضى نحبه بعده بشهرين محمد بك الألفى الكبير الذي يقول وهو يجود بنفسه الأخير : « قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على . . »

* * *

فى سنة ١٢٢٠ التى ذكرنا أنها سنة المبايعة لمحمد على والقاهرة مصطخبة بالثورة والأمور منتقضة والعامة مسلحة والجنود

موالية ومخالفة . والحالة معلقة مبهمة والقضية كما يقول الجبرتى : « مشكلة بين أوباش مختلفة . وطباع معوجة منحرفة » ارتأى الجبرتى أن يجمع التاريخ الذى شغل تلبه خمس عشرة سنة ولعله استشعر الكبر وهو قد تجاوز الخمسين — ولديه مؤلفات كثيرة يود التفرغ لتصحيحها وتقويمها وقد قال عن الأوراق التى كان جمعها لأستاذه الشيخ مرتضى إنى : « طرحت تلك الأوراق فى زوايا الإهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع إلى أن حصل عندى باعث من نفسى على جمعها مع ضم الوقائع والحوادث والمتجددات على هذا النسق » . ولو أردنا أن نستكنه هذا الباعث النفسى لما عدونا الحقيقة إذا قلنا إنه مزيج عوامل شتى أولها وأهمها خيبة الأمل فى هؤلاء العائدين « الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون . . . » وثانيها وأبرزها النجاح الذى لقيه كتابه مظهر التقديس واهتمام السلطان سليم الثالث به فى حين لم تشتهر الكتب الأخرى التى قدمها إلى الوزير غيره كالشيخ الشرقاوى ومن لف لفه . وثالثها وأدقها مراجعة نفسه فى اقتضاب بعض الحقائق أثناء تأليف كتاب مظهر التقديس المهدى إليه ومراعاة لبعض المعاصرين من الأصدقاء وغير الأصدقاء . . . ولقد سهلت عليه كتابته عن الحملة الفرنسية مباشرة تاريخه الكبير ولم يثبط من عزيمته

أن كتاب أحمد جلبي عبد الغني «استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم في صندوق العدم» ولا أن «الكراريس التي سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مختلة التهذيب والترتيب» بل ذهب الجبرتي يستعين بأوراقه وكراريسه، ويقتدح قريحته، ويكد ذاكرته، فوضع تمهيداً تحدث فيه عن التاريخ وفضله وفائدته ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف بها في تقسيم طبقات الناس ثم بسط النصيحة لأرباب الدول باقامة العدل وحسن السياسة وألم بعد ذلك إلمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني وتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة فسرد بعض حوادثها ثم استهل تاريخه بسنة ١١٠٦ وأجمل الأحداث إجمالا إلى سنة ١١٢١ وشرع بعد ذلك يتابع السنين واحدة فواحدة يبسط حوادثها ثم يترجم لمن ماتوا فيها. وقد يرجىء ذلك إلى حين لأنه لم يكن على يقين من تاريخ الوفيات وذلك حسب قوله: «على سبيل الاجمال بحسب الإمكان فاني لم أعثر على شيء من تراجم المتقدمين من أهل هذا القرن ولم أجد شيئاً مدوناً في ذلك إلا ما حصلته من وفياتهم فقط وما وعيته في ذهني واستنبطته من بعض أسانيدهم وإجازات أشياخهم على حسب الطاقة». وقال في مكان آخر: «لم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي. والله مطلع على أمري وحدسي». وقد فصل تفصيلا

دقيقاً تعادى الفرق التى تؤلف الحامية التركية وتنافس الأمراء والصناجق على الحكم ودسائسهم ومصارعهم . وأسهب فى ذكر الشعراء يستشهد بالكثير من شعرهم وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ولكنه لا يشعر بتضلعه فى الأدب والشعر ثم إنه فقيه صوفى لا بد أن يولى همه مشايخ الصوفية ويشرح معمياتهم وألغازهم . وهو أيضاً عالم فلكى يجب أن يذكر الأحداث الفلكية ويحاول تفسير الحوادث على ضوئها فى بعض الأحيان ولعل علو كعبه فى العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل فى النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة وهو إلى جانب هذا يدخل فى الحياة الخاصة ويسلسل الأسر ويذكر علاقات أفرادها ببعضهم البعض ويثنى ويذم حسب مقتضيات الحالة وكما يراها وعنى عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها وما إلى كل هذا من شؤون مختلفة ، وأمور مصطفقة . على أنه إلى سنة ١١٧٧ ما برح يكرر ويؤكد أن كل روايته : « بحسب التيسير إذ التفصيل متعذر. وجمع الشوارد فى الظلام متعسر. وذلك بحسب الإمكان وما وعاه الفكر والذهن خوان » . لأنه كان يكتب عما حفظ ووعى سواء من « لفظ الشيخ الوالد » أو غيره ولما أدرك العاشرة من عمره وهى سن التمييز انقلبت الحال من السماع إلى العيان وهو القائل : « ولما صرت فى سن التمييز رأيت الأشياء على

ما ذكر إلا قليلا » . وأصبح منذئذ يستعيد الذكريات القديمة حتى يصلها بما سبق له تدوينه أيام اشتغاله بالتراجم اشيخه السيد مرتضى فيسرد حوادث السنة متابعاً ترتيب الشهور ثم يختمها بتلخيص الحالة العامة وتراجم الذين ماتوا . ومنذ أول المائة الثالثة عشرة أخذ فى التفصيل والتطويل لأنه كان قد دون كل الحوادث والوقائع ولم يعد فى حاجة إلى اقتداح القريحة وكد الذاكرة إلا فى الجزئيات .

ولما وصل إلى عهد الحملة الفرنسية اكتفى باثبات كتابه مظهر التقديس برمته بعد أن حذف مقدمته والفصول التى كتبها صديقه العطار. وعاد إلى أمانته التاريخية من إنصاف المؤرخ لهم وقوم بعض الحوادث وصححها كما يرى. ذلك من يقارن بين الكتابين لأنه لم يبق هناك وزير يترضاه ولا أمير يهابه ولأنه يجب ضرب المثل بالفرنسيين لهؤلاء العائدين الذين خيبوا أمله فيهم... ثم والى تنسيق الحوادث على النمط الذى اختطه لنفسه فقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء وجرى بالجزء الأول إلى آخر سنة ١١٨٩ وبالثانى إلى آخر سنة ١٢١٢ وبالثالث إلى آخر سنة ١٢٢٠ وأسماه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ؛ ولا بد من المسارعة إلى القول بأننا لسنا هنا فى مقام الكلام على تاريخه إلا بمقدار ما يتصل بالترجمة له لأن البحث فى هذا التاريخ

من الجهة العلمية والفنية يستغرق سفراً ضخماً مستقلا وإنما نقصر القول الآن على ملاحظات عامة . فقد امتاز الجبرتى عمن تقدمه من مؤرخى مصر بأنه عنى بالأمور الجليلة والحقيرة والرفيعة والوضيعة ولم يدع شيئاً نمى إلى علمه مهما عظم أو صغر إلا دوّنه مخلصاً فى دقة مدهشة . وكان رحمه الله عصبى المزاج سريع التأثر وهى صفة تجعل صاحبها محبًّا للاتقان حيناً عجولا متبرماً بما لديه أحياناً . لذلك نراه دقيق التحرى أميناً فى النقل نزيهاً فى الرواية يعرب عن آرائه فيما يعرض له فيتبسط ويتقبض ويسخر ويتهكم ويشتط ويغضب وهو . دقيق الملاحظة ألمعى الذكاء . نفاذ البصيرة . إلا أنه مهما ارتفع عن مستوى عصره فقد بقى مرهقاً به لا يسمو إلى النظرة الشاملة ولا يستخلص العبرة البادرة ولا الحقيقة الاجتماعية . وهو ضيق الأفق بحكم بيئته لا يعرف شيئاً عما نسميه السياسة العليا ولا عن علاقات مصر بغير تركيا سواء فى الشرق أم الغرب اقتصاديًّا أو تجاريًّا فلا يتسع نظره لبعض الأمور السياسية التى تمليها تلك العلاقات ولا يتنبه إلى كبار الأوربيين الذين زاروا مصر فى عهده . وقد أولع بالتغنى بالعدل والتشنيع على ظلم الحكام وهو يفهم أن العدل إنما هو إقامة الشريعة الغراء والرفق بالرعية وقد تأثر الجبرتى كثيراً بالصداقة والصحبة فهو

يعلن ميوله الشخصية وإيثاره هذا على ذاك. لذلك كان لوالده وأصدقاء والده وأشياخه وأصدقائهم نصيب وافر من تاريخه مع محاولة الإنصاف وإجهاد النفس على تحرى الحق أو ما يظنه حقاً وقد أتقن فن الترجمة بقدر ما أتيح له وبرع فى تصوير الشخصية وإبراز خلق المترجم لهم ببراعة فائقة وإننا نعد ترجمته لعثمان بك ذى الفقار ولوالده الشيخ حسن الجبرتى ولشيخه السيد مرتضى وللأمير محمد بك الألفى من أحسن كتاباته. على أن ولعه بالتراجم جعله يترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم من كبراء وأمراء ومن كل رفيع ووضيع حتى خدمة النعال فى المساجد والوقادين والمجذوبين وحتى لمن لا يعرف لهم ترجمة(١) وقد ترجم لامرأة واحدة هى الست نفيسة المرادية ولم يترجم لأحد من الحنبلية لأن أهل هذا المذهب لم يكونوا فى مصر. ولعله كان يسهو فى بعض الأحايين فيروى حادثاً رواه من قبل أو يشير إلى حادث أو أمر يعرفه هو ومعاصروه فلا يوضحه فإذا هو مستبهم علينا اليوم لبعد العهد وانقلاب البيئة. ثم إنه مع ثرثرته عن أبيه وتلامذة أبيه لم يذكر لنا شيئاً عن تلامذته هو ومريديه. ولا نعرف منهم سوى اسم الشيخ مصطفى باكير المعروف

(١) جاء فى تراجم المتوفين سنة ١٢٢٥. « مات الفقيه الفريد الشيخ على الحصاوى الشافعى ولا أعلم له ترجمة الخ .. »

بالساعاتى . ولعله انفرد بين المؤرخين بالتوسع فى وصف القاهرة ومساجدها وشوارعها وعطفاتها وتاريخ ما فيها من قصور وقلاع ومنازه على أنه لا يسعنا هنا مجاراته وذكر ما له وما عليه لضيق المقام .

أما أسلوبه فى الكتابة فقد ثقل عليه طابع العصر وإن كان قد درس فصيح ثعلب وفقه اللغة وأدب الكاتب كما تقدم . ولا نظلمه فنزعم أن أسلوبه عامى . . . فإن فيه الفصيح السهل والجزل المسجوع وقد يعلو ويرتفع ، وينحط ويتضع . وأحياناً يستمسك ، وطوراً يتفكك ، مما يدل على تباعد فترات الكتابة. إلا أنه على كل حال فيه قوة وحيوية فهو يرضى القارئ الخاص ويسليه ، ويعجب القارئ العادى ويفيده .

* * *

أنكر الجبرتى على محمد على مسلكه منذ البدء لأنه لم يفهم نياته فناصبه العداء ووقف منه موقف المعارضة العنيفة. وإذا كنا نفهم الحزن الذى تنبض به ترجمة محمد بك الألفى ولعل الجبرتى كانت له به صلة منفعة ، وإذا كنا نفهم دعواه مصرية المماليك وأحقيتهم بالبلاد واعتبار محمد على ورجاله دخلاء عليهم فإننا لا نفهم أسفه على إخفاق حملة الانكليز على مصر سنة ١٢٢٢ وقوله : « وما كان إلا ما أراده المولى جل جلاله من تعسة الإنكليز

والقطر وأهله إلا أن يشاء الله » ولا نفهم كيف يؤثر الجبرتى الإنكليز على محمد على ويغطى هواه على بصره إلى آخر عمره إلا قليلا .

وراحت الحوادث تتتالى وأخذ محمد على يضع أسساً قوية تقوم عليها دولة قوية وراح يتحسس وجوه النقص فى الإدارة ويتلافى فيها ضروب الإفراط والتفريط ورأى أن خير ما يضنعه إنما هو حصر مرافق البلاد فى نفسه فأبطل ما نسميه اليوم امتيازات المشايخ وأرغمهم على دفع الضريبة وعين بعض أقاربه على دار السكة وفرض الأموال على الأراضى التى يزعمون أنها مرصدة إلى جهات البر من أيام الملك الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبى وفرض كثيراً من الضرائب على الملتزمين والتجار فضج الناس وثار عمر مكرم والمشايخ يحسبون أن الوالى الجديد يهاب سطوتهم كما كان يهابها أسلافه من قبل ولكنه لم يأبه لهم وسرعان ما تخاذلوا وفشلوا ونفى السيد عمر إلى دمياط وكان أن قال الشيخ الشرقاوى لمحمد على : « ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم. فقال : أنا لست بظالم وحدى وأنتم أظلم منى » وقال على كتخدا مرة للمشايخ : « أنتم تكذبون علينا ونحن نكذب على الناس » .

وكانت حركة الوهابيين قد اشتدت فى الحجاز حتى أقضت

مضاجع رجال الدولة فندبوا لقمعها محمد على فنهض لها وراح يجيش الجيوش ويبنى الأساطيل ولكن أنى له أن يخلى البلاد من الجيوش والمماليك حوله يحوكون الدسائس وقد اعتدى عليه فى الميدان فى وضح النهار ومع هذا بقى يكظم غيظه ويدارى ويصانع حتى ضاق ذرعاً وعيل صبره وتجين الفرصة فبطش بالمماليك يوم السبت ٦ صفر سنة ١٢٢٦ فى حادثة القلعة المشهورة .

وسافرت الحملة وأخفقت فأمدها محمد على بالمال والرجال وما هى إلا سنة حتى ضربت البشائر بالنصر فسافر محمد على إلى الحجاز ثم وقع الصلح وعاد محمد على إلى مصر وكان فى هذه المدة لا تغفل عينه عن تنفيذ منهاج الإصلاح الذى نهجه لنفسه . وهو بعد جلاء الانكليز أعاد عمارة سور الإسكندرية وأنفق مالا كثيراً على تحصينها ثم بنى ترسخانة عظيمة بساحل بولاق وأنشأ مراكب كباراً وصغاراً تسافر فى النيل وضبط المكوس على البضائع المجاوبة ولم يعف أحداً منها . ولا شك أن الغلاء الذى يشكو منه الجبرتى فى كل صفحة من تاريخه إنما معناه ارتفاع مستوى المعيشة الذى لم يفطن إليه الجبرتى ولارأى فيه إلا ظلماً مبيناً . ومما يقوم عذراً له أنه بلا شك كان يقيس محمد على بعثمان ذى الفقار أو على بك الكبير أو محمد

بك الألفى ولم يفهم الجبرتى أن هؤلاء كانوا نفعيين لا تهمهم مصر إلا بمقدار ما يفيدون منها . أما محمد على فله غرض أسمى لأنه أحب مصر واندمج بها وربط مصيره بمصيرها فعمل على إعادة مجدها الغابر والارتفاع بها إلى مستوى الأمم الحديثة . وقد كافأته مصر بما درت عليه من الخيرات وحققت أمله فيما هدف إليه . وكان لا بد من التنظيم وفيه بادئ ذى بدء عنف وقسوة لاستسلام النفوس إلى عادتها القديمة من الاستهتار والموادعة فلم ير الجبرتى إلا هذه القسوة وهذا العنف وغفل عن كل ما عداهما ، وقد راجع أحكامه مرتين فقط ولكن على مضض . أولاهما حين أعاد محمد على بناء السد الأعظم الموصل إلى الإسكندرية وكان قد تخرب وزحفت مياه البحر منه إلى الأرضين فأكبر الجبرتى هذه الهمة وقال : « فلو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرئاسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » . والمرة الثانية حين بنى حائطين فى رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطغى الرمال وقت ضعف النيل وفى هذا يقول الجبرتى : « وهذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق لمثلها . . . »

أما أن محمد على كان يرسل مهندسيه للكشف على البيوت المتداعية وإنقاذ سكانها من الموت تحت الهدم أو أنه أنشأ فى

قصره بشبرا جناحاً ضم فيه النشء المصرى لتعليمهم أو أنه أرسل بعوثاً إلى الخارج لتلقى اللغات والعلوم فإن هذا وأمثاله لم يحرك حماس الجبرتى ولا أثار إعجابه وبقى على موقفه من التنديد بإدارة محمد على إلى آخر يوم من حياته .

وكان فى هذه الفترة كلها من سنة ١٢٢١ إلى ١٢٤٠ وهى سنة وفاته يدون الحوادث على الطريقة التى شرحناها ويسند الحوادث إلى مخبر ثقة أو شاهد رؤية أو شاهد سماع . أما إذا كانت الحادثة عامة ذهب بنفسه ليعاينها كما ذهب إلى جهة الحطابة تجاه باب الوزير ليشاهد النار التى كانت تنبعث من أحد التلول وكما ذهب إلى بيت قنصل الإنكليز بدرب البرابرة ليشاهد الآثار المجلوبة من مصر العليا . وكان أيضاً يحاول الاتصال بمن يأنس فيهم معرفة الحوادث ويستجوبهم ويتوسع فى سؤالهم فيما يوافق أغراضه وميوله . ولا بد أن الكثيرين منهم ممن يعرفونه وممن لا يعرفونه كانوا يزورونه للسلام عليه نظراً لاشتهار اسمه واسم أبيه بالعلم وبخاصة علم الفلك . وعلى هذا اتصل بأفراد أسرة آل حبيب وآل همام وبعض رجال الحملة الحجازية وبعض الوهابيين الذين حضروا إلى القاهرة بعد الصلح ولعل عطفه على الوهابيين لا باعث له إلا محاربة محمد على إياهم . وإذا صدقناه وجب أن نعتبر الجزء الرابع من تاريخه

مذكرات كان يمنى نفسه بتهذيبها وتنسيقها بدليل قوله فى آخر سنة ١٢٢٥ : « وانقضت السنة بحوادثها التى قصصنا بعضها إذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم فى الرواية فلا أكتب حادثة حتى أتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار . . . وربما أخرت قيد حادثة حتى أتثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها فى طيارة حتى أقيدها فى محلها إن شاء الله عند تهذيب هذه الكتابة وكل ذلك من تشويش البال ، وتكدر الحال ، وهم العيال ، وكثرة الاشتغال ، وضعف البدن وضيق العطن » . ومما لا شك فيه أن تاريخه نشر على الناس وتداولته الأيدى لأنه يقول فى ترجمة الشيخ الشرقاوى المتوفى سنة ١٢٢٧ ما نصه : « وللمترجم طبقات جمعها فى تراجم الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثانى عشر نقل تراجم المتقدمين من طبقات السبكى والأسنوى وأما المتأخرون فنقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد» .

ومما تجب ملاحظته على الجزء الرابع أن فيه نظرات اجتماعية خلت منها الأجزاء السابقة وأن فصوله مسهبة وسياقه منتظم وإن بدت بعض الفصول قصيرة جداً مما يحمل على التظنن فى عبث بعض الأيدى فيها .

٨

لا شك أن الجبرتى عاش ممروراً طول المدة التى قضاها منذ تولى محمد على وكلما مرت سنة رأى دولة محمد على تزيد رسوخاً وقدمه تعلو درجة وكانت البلاد جمعاء ملتفة حواله فلا يفاد إلا منه ولا يبرم أمر أو ينقض إلا بأمره . والليالى مواتية ، والزمان رخاء . وكلما اجتمع الجبرتى بصديقيه العطار والخشاب لم يأل من الشكوى والتذمر . وكانا يقضيان فى منزله ببولاق الليالى الطويلة ويبيتان عنده لارتفاع الكلفة . والتحام الألفة . والخشاب يزيد هزالا . والعطار يزيد صحة وقوة . وقد جاب الأقطار الشرقية وعاد إلى مصر وفى عينيه آفاق جديدة . وفى فؤاده صور وعبر . فهو يحدث عن دمشق والقسطنطينية والجبال والصحراء والأودية والبحار ولكن نفسه لم تكن مستريحة إلى حال الخمول التى رأى عليها الشرق وأهله وخنوعهم إلى الحكام المستبدين وانصراف العلماء إلى المنفعة والمصلحة . وكان غير المسلمين وخاصة الأرمن فى مصر قد تنفسوا الصعداء من ظلم العصور السالفة وعاد محمد على يطبق عليهم الشريعة السمحاء تطبيقاً صحيحاً لا جور فيه ولا انحراف فلا يهانون

فى كرامتهم ولا تصادر أموالهم لأتفه الأسباب بل استخدمهم ولى الأمر فخدموه فى صدق وإخلاص ولذلك أثروا وارتفع شأنهم وصارت لهم مكانة ملحوظة فى البلاد إلا أن عقلية الجبرتى تأبى عليه التسليم بهذا كله لهم ولكن العطار كان أوسع أفقاً وأسلس قياداً فأفاد فيمن أفادوا . ولم يستنكف من التقرب من محمد على وتأليف الكتب وإهدائها إليه ولعله كان الوسيط فى توظيف الشيخ خليل الجبرتى بن عبد الرحمن فى بلاط محمد على لأنه أقنع عبد الرحمن بأنه لا تقبل الدنيا إلا على من اتصل بالوالى ولا يصبح « مرزوقاً إلا من كان فى خدمة الدولة » .

ولا شك فى أن خليلا أخذ عن والده علم الفلك كما أخذه والده عن جده لذلك كانت وظيفة التوقيت فى قصر شبرا على ساحل النيل أليق ما تكون له ولا نعلم على التحقيق سن خليل أيامئذ وإنما عرفنا أن والدته كانت ربيبة على درويش الرومى وأنه ولد قبل المائة الثالثة عشرة .

وكان التأليف والتصنيف والإملاء والتدريس شغلا شاغلا لعبد الرحمن الجبرتى ولا نظنه لبى دعوة صديقه الخشاب إلى حفلة سمر حين وجه إليه هذه الأبيات :

يا سيدى وسندى ويا عريق المحتد
ويا أخا منظره جلاء عين الأرمد
ويا ضيائى اللذْ به فى ليل خطبى اهتدى(١)
يا راحتى وراحتى وساعدى وعضدى
أدعوك تأتى مسرعا ويا لذاك من يد
نؤم قصراً جامعاً كل المعانى الشرد
نصغى إلى مزهر من أضحى فريد البلد

بل كيف يلبى الدعوة وهو الذى أحفظه وأوغر صدره على أشياخ ذلك العهد حضورهم مثل هذه الحفلات فغمزهم غمزاً موجعاً . ولذعهم لذعاً أليماً . ولنا أن نذكر هنا أن انتشار أجزاء تاريخه فى حياته وما فى هذا التاريخ من نقد مرير تناول به بعض الناس لا بد أن يكون قد جعل منهم أعداء له . وإذا كان أقرانه من الأشياخ يتسع صدرهم لمثل هذا النقد فإن سليمان أغا السلحدار مثلاً وهو يقول عنه إنه « الداهية العظمى والمصيبة الكبرى » لا يسيغ هذا الوصف ولا بد أن يكون له أصبع فى المأساة التى ختمت بها حياة الجبرتى .

---

(١) بتسكين الذال أى الذى كما قال المتنبى :
وإذا الفتى طرح الكلام معرضا فى مجلس أخذ الكلام اللذ عنى
أى الذى عناه . وأبيات الخشاب واردة فى ديوانه فقط .

وكانت السنون تمر وصحة الجبرتى تضعف وإخوانه القدماء يموتون فالصاوى والفيومى والسادات والمهدى ورفيقه الصعيدى الذى دفنه بالقرافة التى كان ناظراً عليها، كل أولئك أصبحوا خبراً بل مادة لهذا التاريخ الذى ينفث فيه نقمته على الحكم ويطيل ويقصر فى سرد كلياته وجزئياته . ولكن موت الخشاب سنة ١٢٣٠ خضد عزيمته، وفت فى عضده ، وبخاصة أن العطار كان قد هجر الأدب وانصرف إلى العلوم الشرعية واختص بالشيخ حسن القويسنى الذى أصبح بعده شيخاً للأزهر وواظب على التدريس والتحصيل فلم يعد وقته يتسع لمثل مجالسهم الأولى وأسمارهم العهيدة .

* * *

فى صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٣٧ (١٩ يونيو سنة ١٨٢٢) ريع عبد الرحمن الجبرتى وأهل بيته بدخول لمة من الناس عليهم يحملون ابنه خليلا بين الموت والحياة . وقد علم أبوه أن بعض الأشقياء هاجموه ليلا فى طريق شبرا بينما كان قافلا من قصر محمد على إلى منزله وأثخنوه جراحاً ثم ارتبطوه برجل حماره ولما أصبح الصباح رآه الناس وعلموا من اصطزلابه ومن الكراريس التى يحملها أنه خليل الجبرتى .

وما عتم الجريح أن قضى نحبه بين العويل والزفرات، وكثرت

الإشاعات والأقاويل إلا أن واحدة منها فقط رسخت فى الأذهان فحواها أن محمد بك الدفتردار صهر محمد على أغرى به الأشقياء تشفياً من والده لأنه اطلع على أجزاء من تاريخه وأنكر نقده الجارح للحكم القائم ، فاستأذن محمد على فى الفتك به ولما لم يظفر بالوالد فتك بالولد .

ولكن هذه الإشاعة لا تقوم على ثبت لأن أمثال محمد بك الدفتردار لا يعوزهم الإذن للانتقام من أعدائهم ولا هذه هى الطريقة التى يسلكونها لتنفيذ أغراضهم وليس محمد على ممن يرضى عن مثل هذا التشفى من شيخ عالم فلكى ومصر إذ ذاك فى قبضته وفى غير هذا الأساوب مندوحة عنه .

وإذا اتهمنا سليمان أغا السلحدار فقط للسبب الذى قدمناه فتكون المسألة شخصية لا دخل لأحد من رجال الدولة فيها .

ومهما يكن من الأمر فقد بلى عبد الرحمن الجبرتي بقاصمة الظهر وكان منشغلا بتاريخ الثورة اليونانية فكسر أقلامه وضرب بكراريسه عرض الحائط ولا بد أن يكون الإغراق فى القراءة والكتابة قد أضعف بصره حتى إنه لما فاض دمعه على ابنه وتمادى به الحزن ذهب بصره وقبع فى داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب وأصبحت حياته نكرة حتى مات على فراشه سنة ١٢٤١ (١٨٢٥) رحمه الله تعالى .

هذه خاتمة حياة عبد الرحمن الجبرتى نعتقد صحتها اعتماداً على النصوص التى بين أيدينا والتى نود أن نستعرضها .

لقد بقى تاريخ الجبرتى محظوراً طبعه وتداوله إلى أن رفع هذا الحظر المغفور له الخديوى توفيق باشا فطبع الجزءان الثالث والرابع فى أيامه ثم طبع الأول والثانى أيام المغفور له عباس الثانى فى أواخر المائة الثالثة عشرة الهجرية وظهرت ترجمة فرنسية كاملة منه بين ١٨٨٨ و ١٨٩٦ فى تسعة أجزاء قام بها شفيق منصور بك (يكن) وعبد العزيز كحيل بك وجبرائيل نقولا كحيل بك وإسكندر عمون أفندى وجاء فى ترجمة الجبرتى عن وفاته فى المقدمة الفرنسية ما ترجمته « فى ليلة ٢٧ رمضان ١٢٣٧ (١٨ يونيو سنة ١٨٢٢) إذ كان الجبرتى عائداً من قصر محمد على بشبرا إلى القاهره خنق بطريق شبرا وربط بحبل إلى رجل حمارة » .

ونحن لا نحفظ من هذه الرواية إلا تاريخ الواقعة فقط . ونعرف من جهة أخرى أن المسيو ألكسندر كردان ترجمان القنصلية الفرنسـيـة بالاسكندرية ترجم إلى لغته كتاب مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ونشره فصولا فى الجريدة الأسيوية فى مارس سنة ١٨٣٤ ويوليو وديسمبر سنة ١٨٣٧ ثم جمعت هذه الفصول فى كتاب مستقل نشر سنة ١٨٣٨

أى بعد موت الجبرتى بثلاث عشرة سنة وترجم للجبرتى فى مقدمة كتابه معتمداً على المعلومات التى استقاها من أسرته والعهد به قريب بعد فذكر عن موته ما ترجمته : « إن أحد أولاد عبد الرحمن الذى يعمل لدى محمد على باشا هاجمه بعض القتلة فى طريقه من شبرا إلى القاهرة فى ليلة من ليالى رمضان سنة ١٨٢٣ (١٢٣٨) ومات متأثراً بجراحه فبكاه عبد الرحمن إلى أن ذهب بصره ولم يعش بعده طويلا » .

ونحن من هذه الرواية نحفظ الواقعة وذهاب بصر الجبرتى ولا نأخذ بالتاريخ لأن أحد الرحالة الإيطاليين واسمه ج . ب . بروكى زار الجبرتى يوم أول ديسمبر سنة ١٨٢٢ فى منزله ببولاق فوجده أعمى قابعاً فى بيته . فتكون هذه الزيارة سابقة للتاريخ الذى ذكره المسيو كردان ومتأخرة عن التاريخ الذى زعم فيه المترجمون الأربعة أنه مات فيه وهذا ما ذكره الرحالة الايطالى بروكى فى يومياته(١) بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٨٢٢ أى يوم الزيارة (جزء ١ صفحة ١٥١) :

« زودنى المسيو دروفتى فى الإسكندرية برسالة إلى عالم عربى يدعى عبد الرحمن الجبرتى وقال لى إنه ضليع فى علم الهيئة ، فما

(١) يوميات عن مصر وسورية والنوبة تأليف ج . ب . بروكى طبعت بعد وفاة المؤلف فى خمسة أجزاء بمدينة باسانوينى سنة ١٨٤١ و ١٨٤٣

عتمت أن زرته بصحبة الخواجة مسرة ترجمان القنصلية الفرنسية وكم كان دهشى عظيماً حين وجدت هذا الفلكى أعمى . فسألته إذا كان لدى الفلكيين فى مصر آلات يرصدون بها حركات الكواكب؟ فقال إنه ليس لديهم شيء منها وإن الذين ينصرفون إلى هذا العلم قليلون وقد يكون لدى بعضهم بعض آلات مجلوبة من أوروبا. فسألته إذا كان فى إمكانهم أن يعرفوا مواعيد الكسوف والخسوف؟ فأجاب نفياً فسألته أيضاً إذا كانوا يضعون التقاويم للجماهير؟ فقال إن لديه بعضاً منها ولكن ليس فيها تقويم خاص» . إلى أن قال : «على أنى لم أرد اطالة الحديث مع هذا الشيخ الطيب الذى قيل لى عنه فيما بعد إنه أعلم بالتاريخ العربى المصرى منه بعلم الفلك وإن له فيه كتاباً موثوقاً به . وهو سبق له التعرف بالفلكى الفرنسى نويه[١] وقد سألنى عنه وقال إن هذا العالم يمكنه التبحر فى علم الفلك لأنه عدا الآلات التى لديه يتقاضى من الحكومة ريالين يومياً وأما هو (أى عبد الرحمن) فكان يتقاضى بعض الأجر فى وقت مضى أيام طلبوا منه عمل التقاويم ولكن الباشا الحالى لايكافىء الذين يقبلون على مثل هذا العلم والاجتهاد ولا يدفع شيئاً إلى أحد، لذلك لن

(١) كان الفلكي الفرنسى نوى (١٧٤٠ — ١٨١١) قد توفى منذ إحدى عشرة سنة ولا يعرف ذلك لا بروكى ولا الجبرتى .

نرى اليوم فى القاهرة كلها عالماً فلكيًّا واحداً » .

وهذه الصفحة من يوميات الرحالة الإيطالى بروكى تلقى ضوءاً باهتاً على أواخر أيام الجبرتى .

أما أن الجبرتى مات سنة ١٨٢٥ فقد أخذنا برواية المستر لين فى كتابه : « المصريون المعاصرون » إذ ذكر فيه أن عبد الرحمن الجبرتى : « مات فى سنة ١٨٢٥ أو سنة ١٨٢٦ بعد وصولى إلى القاهرة بفترة وجيزة » .

وأما أن قتيل شبرا هو خليل الجبرتى فقد توفرت لدينا معلومات خاصة تدل على أن عبد الرحمن توفى عن ابنيه حسن ومحفوظ فلا بد أن يكون القتيل خليلا الذى ذكرناه فيما تقدم . ودلتنا هذه المعلومات على أن الشيخ حسن لم يعقب بل أعقب المرحوم الشيخ محفوظ ابنة هى المرحومة توحيدة محفوظ الجبرتى التى أعقبت محمد يوسف وزينب وكلاهما أعقبا وقد تكنى أولاد محمد يوسف بكنية الجبرتى وإن كانوا أحفاد حفيدته وأسرتا محمد يوسف وزينب (عبد العزيز) والأسرتان معروفتان اليوم فى القاهرة . وبعد موت الجبرتى احترق منزل الصنادقية وأكلت النار مكتبة الجبرتى فلم يبق لها من أثر وضاعت كراريس تاريخه بعد سنة ١٢٣٦ وهذا المنزل اليوم متهدم بال ينكره زائره ويقف فيه ضيق الصدر تحز فى قلبه شجون وذكريات .

وكانت وكالة الابزارية ببولاق على النيل فبعدت اليوم عن ساحله لتغير مجراه وقد أصبحت طللا خراباً تقوم فيها سوق دورية للفلاحين بعد أن كانت مراحاً للعلم والعلماء ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

أجل لقد انتقل عبد الرحمن الجبرتى إلى الرفيق الأعلى سنة ١٢٤١ (١٨٢٥ م) ودفن بتربة الصحراء إلى جانب أسلافه رحمهم الله جميعاً وقبره معروف اليوم. وقد جزع عليه صديقه الشيخ حسن العطار جزعاً شديداً فكفل ولديه وتعهد أسرته وحفظ له سالف صحبته وأخلص له حياً وميتاً .

وهكذا أطفأ الموت كوكباً كشف ضياؤه الإبهام عن عهود ثلاثة هى أواخر حكم المماليك والحملة الفرنسية وأوائل حكم محمد على . وقد بذل فى وضع تاريخه حياة أنضجها العلم ووسعتها استقامة السليقة ورجاحة العقل ولولاه لضاع من تاريخنا جزء كبير وكفاه فخراً أنه اليوم مرجع يعتمده الغربيون بله الشرقيين .

ولم يكن الجبرتى راضياً عن العهود الثلاثة التى أرخها لأن عهد المماليك كان حافلا بالدسائس والدماء ولا سبيل إلى الحكم والاستمساك فيه إلا بها . فالذمم مخفورة والضمائر فاسدة، وغرائز الشر لا كابح لها ولا وازع .

أما عن الحملة الفرنسية فلم ينصف الجبرتى أحد لأن الافرنج قالوا إنه شيخ متعصب والشرقيون قالوا إنه ناصر الفرنسيين .

على أن تعصبه كان طبيعياً بل ضرورياً لأنه صدى شعور عصره الذى يعد الخطوة الناقلة من القرون الوسطى إلى العصر الحديث . والجبرتى عالم من جلة علماء المسلمين يريد لدينه العزة والتمكين فكيف يرتاح إلى أجانب هبطوا البلاد ودخلوها بالسيف والمدفع وهم نصارى مهما تقولوا وتخرصوا وأنكروا دينهم وتحببوا إلى المسلمين وأى لوم عليه إذا وقف منهم موقف الريبة ، ونظر إليهم بعين المقت والضغينة . وكيف لا يكبر عليه أن يصطنعوا أسافل الأقليات ويجعلوا منهم سادة بعد أن كانوا من حشو العامة . ومع هذا فالجبرتى قد اعترف للفرنسيين بفضلهم وأشاد بعدلهم وأعجب بعلمهم ونظامهم ، فأنصفهم حيث وجب إنصافهم . وندد بمناقصهم ومفاحشهم حيث وجب التنديد . فلم يكن تقريعه لهم تعصباً عليهم ولا إنصافهم نصرة لهم بل ظل عادلا حكمه ، سليما ضميره ، خالصاً دينه . راسخاً يقينه .

وأما وقوفه موقف المعارضة من محمد على فهو لم يشهد إلا طور التحضير وفيه ما فيه من انقلاب عنيف . ولا شك فى أنه لو مد الله فى أجله لغير رأيه وهلل لمحمد على إعجاباً وإكباراً . على

أن فى طغيان عصره عليه عذراً له ولا يخرج المرء من دنيا إلى دنيا بمثل السهولة التى يخرج بها من بلد إلى بلد .

وبعد . فالجبرتى مسلم منصف لم يكن تعصبه ذميماً أعمى بل معقولا نيراً . ثم هو رقيق حواشى النفس، مستقيم العاطفة موفور الإنسانية يستشعر الرحمة للضعفاء ويشدو النصفة للناس أجمعين . وهو أيضاً أبى النفس يمقت الظلم أيًّا كان مصدره ؛ لذلك شنع على الحكام عسفهم واستبدادهم ، وسوأ على الرؤساء إثراءهم من العباد ، وأنكر الفوضى ، وحمل على الظلم لأن العدل رائده ، والإقساط غايته . فهو بهذه الخلال وبما كتب وأفاد يعد علماً من أعلام الإسلام .

سبدى بشر صيف سنة ١٩٤٥

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.

- السلسلة الشهرية الوحيدة التي تعمل منذ أكثر من خمس سنوات على جعل الثقافة في متناول الجميع.

- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة في كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.

- تصدرها دار المعارف بمصر في طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ فؤاد صروف

ثمن النسخة ٥ قروش

٦٠ ملاً في فلسطين وشرق الأردن ٦٠ غرشاً في لبنان
٦٠ فلساً في العراق ٦٠ غرشاً في سوريا